

مَجَلـة شَهـريَّـة اسْلاميَّـة أَدبيَّـة

تصدر عن دار التأليف والترجمة، بنارس

المجلد (٤٧)	ذو الحجة ١٤٣٦هـ
العدد العاشر	أكتوبر ٢٠١٥ م

المشـرف العام — **عبـد اللّه سعـود بن عبـد الوحيد**

رئيس التحريـر — **أسعد أعظمي بن محمد أنصاري**

☆ عنوان المراسلة:	**صـوت الأمـة:** بى ١ / ١٨ جى، ريورى تالاب، بنارس، الهند The Editor, Sautul Ummah B-18/1-G, Reori Talab, VARANASI - 221010 (INDIA)
☆ تـرسـل شيـكات الاشتراک بهذا الاسم:	**دار التاليف والترجمة** Name: **DARUT-TALEEF WAT-TARJAMA** Bank: **ALLAHABAD BANK**, Kamachha, VARANASI A/c No.: **21044906358** IFSC Code: **ALLA0210547**
☆ الاشتراک السنوي:	في الـهـند (١٥٠) روبيـــة، في الخارج (٤٠) دولار بالبريد الجوي، ثمن النسخــة (١٥) روبيــة

موقع المجلة على الانترنت: www.sautulummah.org

المنشــور لا يعبــر إلا عــن رأي كاتبــه

محتويات العدد

الافتتاحية

وضع اللغة العربية في الهند

أسعد أعظمي بن محمد أنصاري

لمعرفة وضع اللغة العربية في الهند على مر العصور لابد من عرض سريع لتاريخ الإسلام والمسلمين في هذه البلاد.

يرجع تاريخ دخول الإسلام في الهند إلى العهد النبوي الميمون، كان تبادل تجاري واقتصادي بين العرب والهنود قائما من قبل عهد الإسلام، "فقد كان التجار العرب قبل بزوغ فجر الإسلام بقرون يذهبون بمنتوجات ومصنوعات الشرط الأوسط وإفريقيا إلى الهند وسيلون وبورما والصين واليابان عن طريق البحر، ويرجعون بصنائع هذه البلدان المذكورة إلى الشرق الأوسط وإفريقيا، وإنهم بنوا لهم القصور عند المناطق الساحلية للهند حتى أصبحت لهم مستعمرات مستقلة في جنوب الهند." [١]

وبعد طلوع شمس الإسلام في مكة تنورت أرض الهند بأشعته عن طريق هؤلاء العرب التجار الذين كانوا قد تشرفوا بالدخول في الإسلام، وتذكر الروايات التاريخية أن عديدا من الصحابة والتابعين توافدوا إلى سيلون (سرى لنكا حاليا) وإلى ولاية كيرالا (من ولايات جنوب الهند) وحملوا معهم راية الإسلام، واستقطبوا أنظار سكان البلاد بدعوتهم وخلقهم وتسامحهم إلى الإسلام. [٢]

ظل الإسلام في انتشار وازدهار في مختلف مناطق الهند إلى أن تكونت للمسلمين دولة، وتمت لهم السيطرة على مقاليد الحكم، وظلوا يحكمون هذه البلاد زهاء ثمانية قرون، إلى أن نشب الاستعمار الإنجليزي مخالبه في هذه الدولة المسلمة بمكره

---

[١] نماذج من تأثير اللغة الهندية في اللغة العربية، مقال للأستاذ عبد المجيد الندوي، بمجلة "ثقافة الهند" المجلد (٤٥) العدد (١) ١٩٩٤م ص: ١١٥- ١١٦.

[٢] انظر للتفصيل: تاريخ أهل حديث هند (بالأردية) للشيخ محمد رئيس الندوي، المطبعة السلفية، وارانسى، ط١: ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م، ص:٦٠ وما بعدها.

وخداعه، حتى استلب الولايات واحدة تلو أخرى، وبسط كامل نفوذه على الدولة في القرن الثامن عشر الميلادي، وأصبح يحكم البلاد بالحديد والنار، حتى تمكن سكان البلاد من تحرير وطنهم من الاستعمار الانجليزي بعد مناوشات وانتفاضات راح ضحيتها آلاف مؤلفة منهم، وقد تم تحرير البلاد وانقسامها معا في أغسطس عام ١٩٤٧م إلى دولتين: الهند والباكستان. ثم انفصلت الباكستان الشرقية عام ١٩٧١م عن الباكستان الغربية، وقد ظهرت على خريطة العالم باسم "بنغلاديش".

بعد انفصال الباكستان – بشطريها الغربي والشرقي- ذات أغلبية مسلمة بقي المسلمون في الهند كأقلية دينية، وقد تجرعوا مرارة كأس التقسيم، وواجهوا ظروفا صعبة، ولاقوا خسائر فادحة في الأموال والأنفس والثمرات، ولكنهم واصلوا جهودهم للحفاظ على هويتهم الإسلامية وكيانهم الديني. ويبلغ عددهم حاليا نحو مائتي مليون، ونسبتهم من مجموع سكان الهند نحو ١٥٪ وهم أكبر أقلية من بين الأقليات الدينية في البلاد، علما بأن تجمعهم في هذه البلاد يعتبر ثاني أكبر تجمع للمسلمين في العالم بعد إندونيسيا، وعددهم –رغم كونهم أقلية- يفوق عدد مسلمي باكستان وبنغلاديش مجتمعا، ولله الحمد.

وحينما نستعرض تاريخ اللغة العربية في الهند الغير المنقسمة بعد دخول الإسلام فيها نجد أن المسلمين بعد أن وطدوا أقدامهم في ربوع الهند عكفوا على دراسة اللغات المحلية تمهيدا لنشر التعاليم الإسلامية في أنحاء البلاد، وفي نفس الوقت جذبوا اهتمام المواطنين إلى اللغة العربية..حتى تمكن عدد كبير من الهنود من تعلم اللغة العربية وأساليبها وجعلوا يؤلفون الكتب ويقرضون الأبيات في هذه اللغة المقدسة.

"وقد أخذ الإسلام في الانتشار في الهند بدءا من مناطق "مالابار" الساحلية، وبدأ الذين أسلموا منهم يتعلمون اللغة العربية، وبنوا المساجد والمدارس في هذه المنطقة التي لاتزال توجد آثارها حتى الآن.

أما في شمال الهند فقد تحققت الفتوحات العربية بقيادة محمد بن قاسم، وتحولت مناطق السند وملتان إلى ولايات إسلامية، ومضى العرب يحكمون عليها

حوالي ثلاثة قرون، وتحكي كتب التاريخ أن الهنود الذين أسلموا في أقاليم السند الإسلامية كانوا يتحدثون إلى العرب في لغتهم، وكانوا يتـزيون في زيهم، فقد كتب الاصطخري في كتابه "مسالك الممالك":

"ولسان أهل المنصورة والملتان ونواحيها العربية والسندية، ولسان أهل المكران الفارسية والمكرية."[١]

أما الحكام المسلمون في دهلي الذين كانوا دخلوا في الهند من حدودها الشمالية الغربية فكانوا يتكلمون اللغة التركية، وكانت اللغة الفارسية لغة بلاطهم، بينما كانت اللغة العربية لغة دينهم وعقيدتهم. وقد أنشأ هؤلاء الحكام المسلمون في عهودهم المتعاقبة آلافا من المدارس داخل حدود مملكتهم. وكانت تعلم فيها اللغة العربية وآدابها إلى جانب العلوم والمعارف الدينية.

يجدر بالذكر أنه بعد انتشار الإسلام وعلومه ومعارفه في أنحاء الهند أثرت اللغة العربية في كثير من اللغات الهندية المحلية من نواح عديدة لفتت أنظار الباحثين، فقاموا بدراسات علمية لظاهرة التأثر والتأثير بين اللغة العربية واللغات الهندية المختلفة، ووصلوا إلى نتائج معجبة. ففي عدد واحد فقط [٢] من مجلة "ثقافة الهند" الصادرة من المجلس الهندي للعلاقات الثقافية نجد مقالات وبحوثا تالية تبحث هذا الموضوع بجدية واهتمام:

١- تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية
للدكتور تارا تشاران رستوغي ص: ٥٧ - ٧١

٢- تأثير اللغة العربية في اللغة الأردية في ضوء تعديل المبنى
للدكتور شفيع شيخ (جامعة بومباى) ص: ٧٣ - ٨٥

٣- الكلمات السنسكرتيه والهندية المستعملة في اللغة العربية
للدكتور محمد صلاح الدين العمري (جامعة على كره) ص: ٨٧- ١١٣

٤- نماذج من تأثير اللغة الهندية في اللغة العربية
للأستاذ عبد المجيد الندوي (دار المصنفين) ص: ١١٥- ١٣٠

---

[١] تأثير اللغة العربية في اللغة الأردية، مقال للدكتور شفيع شيخ، بمجلة ثقافة الهند، المجلد (٤٥) العدد (١) ١٩٩٤م، ص: ٧٣- ٧٤.

[٢] وهو العدد الأول من المجلد الخامس والأربعين، عام ١٩٩٤م.

وهذا الموضوع شيق وطريف جدا، إلا أن الخوض فيه يبعدنا عن صلب موضوعنا الذي نحن بصدد البحث عنه الآن.

فنعود إلى ما كنا فيه من عرض لوضع اللغة العربية في شبه القارة الهندية، فنقول: إن المسلمين في عهودهم المتعاقبة اهتموا بإنشاء مدارس دينية تدرس فيها اللغة العربية وآدابها إلى جانب العلوم الإسلامية والأدبية، إنهم دأبوا – كما هو الشأن في منهاج التربية الإسلامية – أن يعلموا أولادهم أولا وقبل كل شئ القرآن الكريم، ذلك الكتاب الخالد المنزل بلسان عربي مبين، فإذا انطلقت لسان الطفل بكتاب الله وأتقن قراءته النظرية وختمه ختمة واحدة على الأقل التحق بالمدارس الابتدائية الإسلامية التي يدرس فيها – إلى جانب المقررات المعتادة – أحكام الصلاة وأدعيتها وأحكام وأدعية الشعائر الإسلامية المختلفة.

وبذلك تصبح اللغة العربية أول لغة يبدأ بها الطفل المسلم دراسته، فتتكون بذلك عنده النواة الأساسية لهذه اللغة، ويصبح من السهل دراستها وتعلمها – فيما بعد- دراسة واعية كلغة مستقلة.

توجد في أنحاء الهند آلاف المعاهد والمدارس والجامعات الإسلامية تنظم الدراسة الشرعية وتخرج الدعاة والباحثين والأئمة والمفتين، يلتحق بها الطالب بعد الابتدائية ويقضي ٨ - ١٠ سنوات يدرس فيها النحو والصرف والأدب العربي والبلاغة والتفسير وعلوم القرآن والحديث والمصطلح والفقه وأصول الفقه والفرائض والتاريخ والعقيدة والأديان وغيرها من المواد المتعلقة بهذه الناحية. مع العلم بأن كل المقررات والكتب الدراسية – أوجلها – تكون باللغة العربية.

ولكن الملاحظ أن الجو السائد في هذه المؤسسات التعليمية هو للغة المحلية التي هي في معظم مناطقها الأردية، بحيث يقوم المدرس بترجمة كل الكتب الدراسية إلى اللغة المحلية ويشرحها ويعلق عليها باللغة المحلية، وهذا المدرس في معظم الأحوال يكون مضطلعا بالنحو والصرف والاشتقاق، خبيرا بقواعد اللغة حتى شواذها، وكذلك الطلاب في مراحلهم المتقدمة، ولكن نادرا ما تجد من بينهم – طلابا ومدرسين – من يتقن اللغة العربية نطقا وتكلما، بل يقعون في حيرة وورطة عندما يجابههم موقف

كلامي مع أهل اللغة الواردين عليهم، ويصل حالهم إلى ما تكلمنا عنه في العدد السابق في بيان وضع اللغة العربية في العالم غير العربي على وجه العموم. فهؤلاء الدارسون والمدرسون– إلا من رحم الله- أيضا جعلوا اللغة العربية رهينة المحبسين: الكتاب وقاعة الدرس، لا بل محبس الكتاب فقط، أما قاعة درسهم فالسيادة الكاملة فيها - كما ذكرنا - للغتهم الأم. ولاحول ولا قوة إلا بالله.

ونذكر هنا أن هذه المدارس تدار بتبرعات المسلمين، وإنها توفر لطلابها الغذاء والسكن والكتب الدراسية مجانا. وهناك مدارس قليلة تصرف لها الحكومة مساعدات جزئية.

يقول الدكتور مقتدى حسن بن محمد ياسين الأزهري – رئيس الجامعة السلفية السابق – :

"ومع أن هذه المدارس تعاني من قلة الوسائل المادية وتواجه أنواعا من المشاكل ولكنها ماضية في تحقيق أهدافها بإخلاص وأمانة، ولاشك أنها كانت – ولا تزال – بمثابة المعاقل والحصون للغة العربية والعلوم الإسلامية، وتتضاعف أهميتها ويتعاظم شأنها لو أجري بعض التعديل والإصلاح في المناهج الدراسية التي تتقيد بها، وذلك بخصوص اللغة العربية حتى يتسنى للطلاب إجادتها تكلما وكتابة." [(١)]

ويقول في مقال آخر له:

"ولتركيز عناية هذه المدارس باللغة العربية وقواعدها وعلومها عرفت هذه المدارس بالمدارس العربية وعرف من طلابها أنهم طلاب اللغة العربية وآدابها، ومن هذا فإنهم يجيدون هذه اللغة، ويقدرون على استخدامها تكلما وكتابة، ويتمكنون من تدريسها لطلابها.

كان هذا هو المتوقع، ولكن الواقع لايوافقه، فإن خريجي هذه المدارس تكون قدرتهم على اللغة العربية ضئيلة، واطلاعهم على آدابها ناقصا..." [(٢)].

---

(١) اللغة العربية في الهند، مقال للدكتور الأزهري، بمجلة صوت الجامعة: جمادى الأولى ١٣٩٦هـ = مايو ١٩٧٦م. ص: ٨- ٩.

(٢) تدريس الأدب العربي في المدارس الإسلامية بالهند، مقال للدكتور الأزهري. بمجلة ثقافة الهند: المجلد (٤٥) العدد (١) ١٩٩٥م ، ص: ١٤٨- ١٤٩.

وهناك جهات تعليمية أخرى أيضا تهتـم بتعليم اللغة العربية وآدابها وهي الكليات والجامعات الرسمية، حيث يوجد في بعض الجامعات الحكومية قسم اللغة العربية، وقد لوحظ أن الاهتمام فيها باللغة العربية وآدابها أكبر، ومنهج الدراسة ونظامها فيها أجود وأشمل، غير أن ناحية القواعد والتمرين على الإنشاء لم تحظ بنصيبها في مناهج الجامعات، ولذلك ضعف الطلاب في القواعد والكتابة. [١]

"إن أقسام اللغة العربية في الكليات والجامعة الحديثة منذ الاستقلال تتلمس الطرق لتأدية وظيفتها، وكان الجو العلمي في الكليات والجامعات الحديثة مساعدا لتغيير مقررات الدراسة حسب التوسع في إحياء ونشر التراث العربي القديم وإدخال المواد الجديدة، مثل تاريخ الآداب، ومقاييس النقد الأدبي، والأدب الأندلسي، والأدب الحديث، كل هذا بخلاف الجمود والقصر على الكتب بعينها في المدارس القديمة (الإسلامية) وكانت النتيجة أن المتخرجين من الجامعات (الحكومية) توسعوا في دراسة الأدب بأصنافها المختلفة مع ربطها بالتغييرات الاجتماعية والتيارات الأدبية في إطار التاريخ العام ، وحصلوا على قدر من الذوق الأدبي مع الأخذ بمناهج البحث والتحقيق العصرية، إلا أنهم بقوا على العموم ضعافا في استخدام اللغة في الكتابة والمكالمة، وربما لم يتقنوا تطبيق قواعد الصرف والنحو في القراءة..." [٢].

وبهذا يظهر أن ضعف الأداء والنطق والتكلم في اللغة العربية يسود في الجامعات والكليات الرسمية كما يسود في الجامعات والمعاهد الإسلامية. ولكننا نذكر أن هناك تطورا وتقدما طرأ – في الآونة الأخيرة - على مناهج الجامعات الرسمية والمعاهد الإسلامية أيضا، بخصوص تعليم اللغة العربية، وبدأ الاهتمام بجانب الاستماع والمحادثة أيضا إلى جانب الاهتمام بالقراءة والكتابة، ولكن الأمر لايزال في حاجة إلى تطوير أكثر وتغيير أكبر حتى تنال اللغة العربية الحية حقها الأوفى ونصيبها الأوفر.

❖❖❖

[١] صوت الجامعة، مايو ١٩٧٦، ص: ٩.

[٢] الدراسات العربية في البلاد الإسلامية غير العربية ، للدكتور السيد محمد يوسف، ص: ٢٩- ٣٠.

أيـام النـحـر

الشيخ عبيد الله الرحماني المباركفوري رحمه الله

عن نافع، أن ابن عمر قال: الأضحى يومان بعد يوم الأضحى. رواه مالك. وقال: وبلغني عن علي بن أبي طالب مثله.

قوله (الأضحى) قال الطيبي: هذا جمع أضحاة، وهي الأضحية كأَرطى وأَرطاة أي وقت الأضاحي. (يومان بعد يوم الأضحى) وهو اليوم الأول من أيام النحر. وبه أخذ أبوحنيفة ومالك وأحمد والثوري، وقالوا: ينتهي وقت الذبح بغروب ثاني أيام التشريق، فآخر وقت الذبح عندهم آخر اليوم الثاني من أيام التشريق، فتكون أيام النحر ثلاثة أيام فقط، يوم العيد ويومان بعده، وروي هذا عن علي وعمر وابن عباس وأبي هريرة وأنس، كما في المحلى (ج ٧ ص ٣٧٧). وحكى ابن القيم وابن قدامة عن أحمد أنه قال: هو قول غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكره الأثرم عن ابن عباس، واستدل لذلك بما روي من النهي عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث. قال ابن قدامة: ولا يجوز الذبح في وقت لا يجوز ادخار الأضحية إليه، ونسخ تحريم الادخار لا يستلزم نسخ وقت الذبح.

وقال الشافعي: يمتد وقت الأضحية إلى غروب الشمس آخر أيام التشريق، فالأضحى عنده ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وإليه ذهب عطاء والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز وسليمان بن موسى الأسدي فقيه أهل الشام، ومكحول، وهو قول ابن عباس، روى ذلك عنهم البيهقي في السنن (ج ٩ ص ٢٩٦- ٢٩٧) وابن حزم في المحلى (ج ٧ ص ٣٧٧ - ٣٧٨) وذكر ابن القيم في الهدي عن علي أنه قال: أيام النحر يوم الأضحى وثلاثة أيام بعده، وكذا حكاه النووي عنه في شرح مسلم، وحكاه أيضاً عن جبير بن مطعم وابن عباس وغيرهما. وحكاه ابن القيم عن الأوزاعي وابن المنذر. وبهذا يظهر خطأ من زعم تفرد الشافعي به. واستدل له بما روى جبير بن مطعم عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال: كل أيام التشريق ذبح. أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي (ج ٩ ص ٢٩٦) من رواية عبد الرحمن بن حسين عنه، وأخرجه البزار من هذا الوجه، وقال: ابن أبي حسين لم يلق جبير بن مطعم، فهو منقطع، وأخرجه البيهقي في المعرفة وفي السنن، ولم يذكر فيه انقطاعا.

قلت: عبد الرحمن بن أبي حسين عن جبير بن مطعم ، هكذا وقع في صحيح ابن حبان، كما في موارد الظمآن والسنن للبيهقي، وكذا نقله الزيلعي (ج ٣ ص ٦١، و ج ٤ ص ٢١٢). وقال الحافظ في التلخيص (ص ٢١٦) بعد عزوه إلى ابن حبان والطبراني والبيهقي والبزار: ما لفظه ''وفي سنده انقطاع، فإنه من رواية عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن جبير بن مطعم ولم يلقه، قاله البزار'' قيل: هو الصواب كما في تهذيب التهذيب (ج ١٢ ص ٢٩٠) وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين هذا هو ابن الحارث بن عامر بن نوفل المكي القرشي النوفلي من رجال الستة، ثقة عالم بالمناسك روى عن نافع بن جبير وغيره. وروى عنه مالك والسفيانان وغيرهم، من الخامسة أي من صغار التابعين، وهم الذين رأوا الواحد والاثنين من الصحابة، و لم يثبت لبعضهم السماع من الصحابة كالأعمش. وأما عبد الرحمن بن بن أبي حسين فذكره ابن حبان في كتاب الثقات في التابعين (ص ١٦٠)، قال: عبد الرحمن بن أبي حسين يروي عن جبير بن مطعم، روى عنه سليمان بن موسى أحسبه والد عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المدني - انتهى.

قلت: وصنيع ابن حبان وشرطه في صحيحه ومسلكه في كتاب الثقات على ما صرح به في آخره (ص ٣٠٨) يدل على أن حديث جبير بن مطعم من طريق سليمان بن يسار عن عبدالرحمن بن أبي حسين عن جبير بن مطعم صحيح متصل غير منقطع خلافا لما قاله البزار.

قلت: حديث جبير بن مطعم هذا أخرجه الدارقطني (ص ٥٤٤) والبيهقي (ج٩ ص ٢٩٦) أيضاً من وجهين آخرين موصولين فيهما ضعف أخرج أحدهما البزار، وأخرجه أحمد (ج ٤ ص ٨٢)، والبيهقي أيضاً (ج ٩ ص ٢٩٥) من طريق سليمان بن موسى عن

جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي أيضاً منقطعة. قال البيهقي: سليمان لم يدرك جبير بن مطعم، وكذا قال ابن كثير كما في نصب الراية (ج ٣ ص ٦١) وأخرجه ابن عدي في الكامل، والبيهقي في السنن (ج ٩ ص ٢٩٦) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وضعفاه بمعاوية بن يحيى الصدفي. قال ابن عدي: هذا ..... جميعا غير محفوظين لا يرويهما غير الصدفي، والصدفي ضعيف لا يحتج به. وذكر ابن أبي حاتم عن أبيه أنه موضوع بهذا الإسناد.

قال ابن القيم: روي من وجهين مختلفين يشد أحدها الآخرعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: كل أيام التشريق ذبح ، وروي من حديث جبير بن مطعم، وفيه انقطاع، ومن حديث أسامة بن زيد عن عطاء عن جابر قال يعقوب بن سفيان أسامة بن زيد عند أهل المدينة ثقة مأمون - انتهى. وقال ابن حجر الهيثمي: والحاصل أن للحديث طرقا يقوي بعضها بعضا فهو حسن يحتج به، وبذلك قال ابن عباس وجبير بن مطعم، ونقل عن علي أيضاً، وبه قال كثير من التابعين، فمن زعم تفرد الشافعي به فقد أخطأ - انتهى.

وقال ابن سيرين وحميد بن عبد الرحمن: لا تجوز الأضحية إلا في يوم النحر خاصة، وهو قول داود الظاهري، لأنها وظيفة عيد فلا تجوز إلا في يوم واحد كأداء الفطرة يوم الفطر، ولأن هذا اليوم اختص بهذه التسمية، فدل على اختصاص حكمها به، ولو جاز في الثلاثة لقيل لها أيام النحر كما قيل لها أيام الرمي وأيام منى وأيام التشريق. وأجيب عنه أن المراد النحر الكامل، واللام يستعمل كثيرا للكمال. وقال القرطبي: التمسك بإضافة اليوم إلى النحر ضعيف مع قوله تعالى (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام - الحج: ٢٨) وقال ابن بطال: ليس استدلال من استدل بقوله عليه السلام بشيء، لأن النحر في أيام منى فعل الخلف السلف، وجرى عليه العمل في جميع الأمصار- انتهى.

وقال سعيد بن جبير وجابر بن زيد: إن وقته يوم النحر فقط لأهل الأمصار وثلاثة أيام في منى، لأنها هناك من أيام أعمال المناسك من الرمي والطواف والحلق فكانت أياما للذبح بخلاف أهل الأمصار.

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف و سليمان بن يسار: الأضحى إلى هلال المحرم لمن استأنى بذلك، وبه قال ابن حزم. روى البيهقي (ج ٩ ص ٢٩٧) وابن حزم في المحلى (ج ٧ ص ٣٧٨ – ٣٧٩) وابن أبي شيبة والدارقطني وأبوداود في المراسيل عن أبي سلمة وسليمان بن يسار قالا جميعا: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الأضحى إلى هلال المحرم لمن أراد أن يستأني بذلك، وهذا مرسل ضعيف. وروى أحمد وأبو نعيم في مستخرجه من طريقه، والبيهقي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف يقول: إن كان المسلمون ليشتري أحدهم الأضحية فيسمنها فيذبحها بعد الأضحى آخر ذي الحجة. قال أحمد هذا الحديث عجيب يشير إلى أن زيادة قوله فيذبحها بعد الأضحى آخر ذي الحجة مستنكرة. قال البيهقي: حديث أبي سلمة وسليمان مرسل، وحديث أبي أمامة حكاية عمن لم يسم - انتهى. قلت: حديث أبي أمامة ليس من قسم الحديث المرفوع ولا الموقوف، بل هو من قسم المقطوع الذي ليس بحجة بالاتفاق.

والقول الراجح من هذه الأقوال الخمسة عندي هو ما ذهب اليه الشافعي للأحاديث التي ذكرناها، وهي يقوي بعضها بعضا. وقد أجاب عنه بعض من اختار القول الأول بجواب هو في غاية السقوط، وهو أنه لم يعمل بحديث جبير بن مطعم أحد من الصحابة، وقد عرفت أنه قول جماعة من الصحابة، على أن مجرد ترك الصحابة من غير تصريح منهم بعدم الجواز لا يعد قادحا. وأما النهي عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فلا يدل على أن أيام الذبح ثلاثة فقط. قال ابن القيم: لأن الحديث دليل على نهي الذابح أن يدخر شيئاً فوق ثلاثة أيام من يوم ذبحه، فلو أخر الذبح إلى اليوم الثالث لجاز له الادخار ما بينه وبين ثلاثة أيام، والذين حددوه بالثلاث فهموا من نهيه عن الادخار فوق ثلاث أن أولها من يوم النحر، قالوا وغير جائز أن يكون الذبح مشروعا في وقت يحرم فيه الأكل، قالوا ثم نسخ تحريم الأكل فبقي وقت الذبح بحاله، فيقال لهم: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينه إلا عن الادخار فوق ثلاث، لم ينه عن التضحية بعد ثلاث، فأين أحدهما من الآخر، ولا تلازم بين ما نهى عنه وبين اختصاص الذبح بثلاث لوجهين: أحدهما أنه يسوغ الذبح في اليوم الثاني والثالث،

فيجوز له الادخار إلى تمام الثلاث من يوم الذبح، ولا يتم لكم الاستدلال حتى يثبت النهي عن الذبح بعد يوم النحر، ولا سبيل لكم إلى هذا الثاني، لو ذبح في آخر جزء من يوم النحر لساغ له حينئذ الادخار ثلاثة أيام بعده بمقتضى الحديث - انتهى كلام ابن القيم. هذا وقد ذهب بعض علمائنا إلى جواز التضحية إلى آخر ذي الحجة معتمدا على أثر أبي سلمة وسليمان بن يسار وأثر أبي أمامة المذكورين في معرض الاستدلال للقول الخامس، وقد رد عليه شيخ مشايخنا الشيخ الإمام الرحالة حسين بن محسن الأنصاري ردا مشبعا في رسالة مستقلة سماها: إقامة الحجة في الرد على من ادعى جواز التضحية إلى آخر ذي الحجة، وهي ملحقة بفتاواه المطبوعة فعليك أن تطالعها.

(رواه مالك) وأخرجه أيضا البيهقي وابن حزم (وقال) أي مالك (وبلغني) وفي بعض النسخ بلغني أي بغير الواو، ولفظ الموطأ مالك أنه بلغه (عن علي بن أبي طالب مثله) بالرفع أي مثل مروي ابن عمر. ولم أقف على من روى أثر علي موصولا، نعم قال ابن حزم في المحلى (ج ٣ ص ٣٧٧) روينا من طريق ابن أبي ليلى عن المنهال ابن عمر وعن زر عن علي قال: النحر ثلاثة أيام أفضلها أولها، قال ابن حزم: أبن أبي ليلى سيء الحفظ، والمنهال متكلم فيه - انتهى. وعزاه علي المتقي في الكنز (ج ٣ ص ٤٦) إلى ابن أبى الدنيا، وأخرج ابن عبد البر في التمهيد، وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا عن علي قال: الأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر ويومان بعده، اذبح في أيها شئت. وأفضلها أولها.

واعلم أنه وقع الخلاف في جواز التضحية فى ليالي أيام الذبح. فقال أبوحنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور والجمهور: إنه يجوز مع كراهة. قال ابن قدامة: وهو اختيار أصحابنا المتأخرين. وقال مالك في المشهور عنه، وعامة أصحابه، ورواية عن أحمد (واختارها الخرقي) أنه لا يجزئ بل يكون شأة لحم. قال الشوكاني: ولا يخفى أن القول بعدم الإجزاء وبالكراهية يحتاج إلى دليل، ومجرد ذكر الأيام في حديث جبير بن مطعم وإن دل على إخراج الليالي بمفهوم اللقب لكن التعبير بالأيام عن مجموع الأيام والليالي والعكس مشهور متداول بين أهل اللغة لا يكاد يتبادر غيره عند الإطلاق - انتهى. وأما ما أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن

يضحى ليلا، ففي إسناده سليمان بن سلمة الخبايري، وهو متروك، كذا في مجمع الزوائد (ج ٤ ص ٢٣) واستدل بعضهم لذلك بقوله تعالى (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) قالوا فلم يذكر الليل، قال ابن حزم في الرد عليه: إن الله تعالى لم يذكر في هذه ذبحا ولا تضحية ولا نحرا لا في نهار ولا في ليل، وإنما أمر الله تعالى بذكره في تلك الأيام المعلومات، أفترى يحرم ذكره في لياليهن؟ إن هذا لعجب، وليس هذا النص بمانع من ذكره تعالى وحمده على ما رزقنا من بهيمة الأنعام في ليل أو نهار في العام كله، ولا يختلفون فيمن حلف أن لا يكلم زيدا ثلاثة أيام أن الليل يدخل في ذلك مع النهار. قال وذكروا حديثا لا يصح، رويناه من طريق بقية بن الوليد عن مبشر بن عبيد الحلبي عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الذبح بالليل. قال ابن حزم: بقية ليس بالقوي، ومبشر بن عبيد مذكور بوضع الحديث عمداً، ثم هو مرسل، ثم لو صح لما كان لهم فيه حجة، لأنهم يجيزون الذبح بالليل فيخالفونه فيما فيه، ويحتجون به فيما ليس فيه.

وقال قائل منهم: لما كانت ليلة النحر لا تجوز التضحية فيها وكان يومه تجوز التضحية فيه كانت ليالى سائر أيام التضحية كذلك. قال ابن حزم: هذا القياس باطل، لأن يوم النحر هو مبدأ دخول وقت التضحية، وما قبله ليس وقتا للتضحية، ولا يختلفون معنا في أن من طلوع الشمس إلى أن يمضي بعد ابيضاضها وارتفاع وقت واسع من يوم النحر لا تجوز فيه التضحية فيلزمهم أن يقيسوا على ذلك اليوم ما بعده من أيام التضحية، فلا يجيزوا التضحية فيها إلا بعد مضي مثل ذلك الوقت، وإلا فقد تناقضوا وظهر فساد قولهم. انتهى.

وروى البيهقي (ج ٩ ص ٢٩٠) عن الحسن البصري قال: نهى عن جداد الليل وحصاد الليل والأضحى بالليل، وهو وإن كانت الصيغة مقتضية للرفع مرسل وأيضا في آخره ''وإنما كان ذلك من شدة حال الناس، كان الرجل يفعله ليلا فنهى عنه ثم رخص في ذلك'' وهذا خلاف ما ذهب إليه مالك و أصحابه.

(مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٥ / ١٠٦ – ١١٠)

❖❖❖

الركن الخامس

الحج: مدرسة التوحيد والعبودية

خالد أبو صالح

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن توحيد الله تعالى وإخلاص العبودية له، هو المقصد الأسنى والهدف الأسمى من إرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الخليقة، قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (النحل: ٣٦)، وقال: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} (الذاريات: ٥٦).

ومن هنا كانت العبادات في الإسلام مرتبطة بهذا التوحيد، مَبْنية عليه مُبَيِّنة أسسه ودعائمه.

ارتباط الحج بالتوحيد

ومن أعظم العبادات التي ارتبطت بالتوحيد ارتباطا وثيقا، بل ما فُرضت إلا من أجل التوحيد والبراءة من الشرك: عبادة الحج ..

فالحج هو قصد بيت الله الحرام للطواف حوله وأداء المناسك المعروفة ..

وهذا البيت إنما بني على التوحيد ولأجل التوحيد كما قال سبحانه: {وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود} (الحج: ٢٦).

قوله تعالى: {وطهر بيتي}، قال قتادة ومجاهد: من الشرك – أي اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له. (ابن كثير ٣ / ٢٨٨).

وقال تعالى: {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم} (إبراهيم: ٣٥، ٣٦).

ومن هنا كان الحج إلى هذا البيت تجديدا لهذه الدعوة الحنيفية واستمرارا على عهد التوحيد وإخلاص العبادة لله.

الحج المشروع

وقد بين الله تعالى أن الحج المشروع إنما هو الخالص لوجهه، الذي ليس لأحد فيه نصيب، فقال سبحانه: {وأتموا الحج والعمرة لله} (الحج: ٢٦)، أي لله وحده لا شريك له، لا لحجر، ولا لشجر، ولا لصنم، ولا لجن، ولا لنبي ولا لولي، ولا لقبر، ولا لملك، إنما هو "لله" وحده لا شريك له. وفي الآية الأخرى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا} (آل عمران: ٩٧).

فالحاج إنما يترك بيته وأبناءه وأمواله، استجابة لله عزوجل، وإيمانا به، ومحبة له، ورجاء في فضله ومغفرته، قال صلى الله عليه وسلم: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه" (متفق عليه).

الحج وتجديد معالم التوحيد

وقبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم عاد الشرك من جديد، وملأ الآفاق، وانطمست معالم التوحيد، وجهل الناس دين إبراهيم، ووضعت الأصنام حول البيت، وجعل مع الله آلهة أخرى، وكان المشركون يحجون البيت، ويطوفون عراة، ويقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك.

فأبطل الله تعالى ذلك، ومنع المشركين من البيت، وأخبر أنهم نجس لشركهم وعنادهم، فقال سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} (التوبة: ٢٨).

ولم يحج النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة وهي السنة التي فرض فيها الحج على الصحيح من أقوال أهل العلم، لأن الأمور لم تكن قد حُسمت بعد، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السنة الصديق أميرا على الحج، وبعث معه من ينادي: "ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان" (متفق عليه).

وحج النبي صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة بعد أن قُضي على مظاهر الشرك تماما في محيط المسجد الحرام، وفي ذلك إشارة إلى أن الحج يمثل ذروة سنام التوحيد، وهو لا يمكن أن يلتقي مع أي من مظاهر الوثنية والشرك.

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم إخلاص هذه العبادة لله، فعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم حج على رحل رث، وتحته قطيفة وقال: "حجة لا رياء فيها ولا سمعة" (رواه البزار).

شعار الحج التلبية

وأبطل النبي صلى الله عليه وسلم الشرك الذي في تلبية أهل الجاهلية، وأقر ما فيها من توحيد، وزاد عليها ما يؤكد تجريد التوحيد، وإبطال كل أنواع الشرك، فكان شعار الحج! "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك".

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن هذه التلبية تحتوي على قواعد عظيمة، منها أنها تتضمن جميع أنواع التوحيد، ومن كلامه رحمه الله: وقد اشتملت كلمات التلبية على قواعد عظيمة وفوائد جليلة:

- إحداها: أن قولك "لبيك" يتضمن إجابة داع دعاك، ومناد ناداك.
- الثانية: أنها تتضمن المحبة، ولا يقال: لبيك إلا لمن تحبه وتعظمه.
- الثالثة: أنها تتضمن التزام دوام العبودية.
- الرابعة: أنها تتضمن الخضوع والذل.
- الخامسة: أنها تتضمن الإخلاص.
- السادسة: أنها تتضمن الإقرار بسمع الرب تعالى.
- السابعة: أنها تتضمن التقرب من الله.
- الثامنة: أنها شعار الحج والانتقال من حال إلى حال، ومن منسك إلى منسك.
- التاسعة: أنها شعار التوحيد ملة إبراهيم، الذي هو روح الحج ومقصده.

- العاشرة: أنها متضمنة لمفتاح الجنة وباب السلام الذي يدخل منه إليه، وهو كلمة الإخلاص والشهادة لله بأنه لا شريك له. (حاشية ابن القيم على سنن أبي داود).

التجرد عن المخيط وحلق الشعر

ومن صور التوحيد والعبودية في الحج: تجرد الحاج من المخيط، ولبسه إزارا ورداء، أشبه ما يكون بكفن الموتى، يفعل ذلك الصغير والكبير، والغني والفقير، ولا يفعل ذلك أحد طائعا مختارا محبا إلا لله عز وجل، مما يدل على إخلاص العبودية والطاعة له سبحانه وحده لا شريك له.

وكذلك حلق الشعر في الحج عبودية لله عز وجل، وتعظيم له، ولا يفعله أحد ذاق طعم التوحيد لغير الله، ولذلك كان الذين يحلقون رؤوسهم لغير الله من القبور والمشايخ قد ارتكبوا بذلك نوعا من الشرك الأكبر، لأنهم صرفوا نوعا من أنواع العبادة لغير الله.

الطواف حول البيت

ومن مظاهر التوحيد والعبودية في الحج الطواف حول البيت، فالطواف حول البيت عبادة، لأن الله تعالى أمر بذلك: {وليطوفوا بالبيت العتيق}، والطواف حول غير البيت من القبور والمشاهد شرك، لأنه عبادة لغير الله، لم يأمر الله عز وجل بها.

والطائف حول البيت لا يطوف تعظيما للحجر، وإنما يطوف تعظيما لله عز وجل الذي أمر بذلك، ولذلك فإن عمر رضي الله عنه لما وقف أمام الحجر الأسود قال: "والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك" (رواه البخاري).

هكذا كان فهم الصحابة رضوان الله عليهم لقضية التوحيد والاتباع، ولا يشبه هذا فهم القبوريين، الذين لا يفرقون بين البيت الحرام، وبين ما يعظمونه من قبور

ومشاهد، بل إنهم يعظمون هذه القبور والمشاهد أكثر من تعظيم البيت الحرام، وإلى الله المشتكي.

إخلاص الدعاء لله

ومن مظاهر التوحيد في الحج: إخلاص الدعاء لله تعالى، فليس في الحج إلا دعاء الله سبحانه وتعالى، وهذا لب العبودية كما قال سبحانه: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل} (لقمان: ٣٠).

وقال: {فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون} (غافر: ١٤).

وقال: {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا} (الإسراء: ٥٦).

وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن أفضل الدعاء في الحج ما كان مشتملا على التوحيد، فقال صلى الله عليه وسلم: "خير الدعاء، دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير" (الترمذي وحسنه الألباني). فمن دعا غير الله عز وجل فهو أضل من حمار أهله.

كثرة ذكر الله

ومن مظاهر التوحيد في الحج: كثرة ذكر الله تعالى وحده لا شريك له.

وقد تنوعت الآيات التي تحث على ذكر الله تعالى في الحج، منها قوله تعالى: {فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم، فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله} (البقرة: ١٩٨ – ٢٠٠).

وكان ذكر النبي صلى الله عليه وسلم مشتملا على كمال التوحيد، والتوكل على الله والاستعانة به، ومن ذلك الذكر الذي كان يقوله على الصفا والمروة، وهو: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله

الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده" (مسلم).

رمي الجمار

ومن مظاهر التوحيد في الحج: رمي الجمار التي يرميها الحاج طاعة لله عز وجل، وعبودية له وانقيادا لأمره، وإن كان لا يدرك معنى ذلك، فيكفي أن الله عز وجل أمر بذلك حتى يقول: سمعنا وأطعنا، ويفعل ما أمر الله به، على الوجه الذي شرعه وحدده.

الذبح لله تعالى

ومن مظاهر التوحيد في الحج: إراقة دماء الهدايا لرب الأرض والسماء، فيذكر الحاج اسم الله عز وجل عند ذبحها ويقول: "بسم الله، والله أكبر" (رواه الترمذي)، عملا بقوله تعالى: {فصل لربك وانحر} (الكوثر: ٢) أي انحر لربك وحده لا شريك له، قال تعالى مبينا علاقة هذا الذبح بالتوحيد: {ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين} (الحج: ٣٤)

فمن ذبح لولي، أو نبي، أو قبر، أو حجر، أو شجر، أو جن، كان مشركا بذلك، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لعن الله من ذبح لغير الله" (رواه مسلم).

إن مظاهر التوحيد في الحج كثيرة جدا لمن تتبع آيات الحج في كتاب الله عز وجل، وتتبع ما ورد في حجة النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث وأخبار، فنسأل الله أن يوفقنا إلى تحقيق التوحيد، وأن يحشرنا في زمرة أهله، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❖❖❖

خصائص الإسلام

الإسلام دين الوسطية

الشيخ لطف الحق المرشدآبادي
المدرس بجامعة شمس الهدى السلفية، دلال فور، جاركند

أخي في الله – رحمك الله – اعلم أن الإسلام يمتاز عن غيره من الأديان والملل بأنه هو دين الوسطية والاعتدال، جاء ليرشد الإنسان إلى سلوك مسلك الاعتدال والتوسط، وإلى انتهاج منهج الاقتصاد في كل ما أمر ونهى، وينهى عن التشديد والتعمق والإفراط في أداء العبادة نهيا باتا، ولذلك ترى أن جميع أوامره وزواجره موضوعة بين الإفراط والتفريط، حتى لا يشق على المرء امتثال أوامره واجتناب نواهيه ... وستمر بك أمثلة ذلك في السطور القادمة إن شاء الله تعالى.

وإني قبل أن أبدأ في المقصود أود أن أقارن بين دين الإسلام والأديان والفرق المعاصرة في مجال التوجيه والإرشاد لبشر العالم الحائر حتى نطلع بذلك جيدا على ما ربح العالم بالإسلام وتعليماته السامية، وهداياته العالية، ونظمه وقوانينه وتشريعاته العادلة، وماذا خسر العالم بنظم المذاهب والفرق المعاصرة الوضعية، وتشريعاته وتنظيماته المختلقة الجوفاء.

إذا قارنت بين الدين الإسلامي الحنيف وبين الأديان والفرق المختلفة وجدت بينه وبينها فرقا كبيرا وبونا شاسعا، رأيت أن توجيهات الإسلام السامية وتشريعاته البينة الواضحة صالحة لهداية البشرية التائهة في جميع نواحي الحياة في كل زمان ومكان إلى يوم يبعثون، بينما ترى أن القوانين والنظم والتشريعات والدساتير التي وضعتها أيدي الناس غير صالحة لهداية بني آدم، وترى أنها قد فشلت في توجيه البشر الحائر نحو الصراط المستقيم والمنهاج السليم والطريق القويم شر فشل، وباءت بالخيبة والحرمان. وترى أن الإسلام دين وسط عادل حنيف قيم خالد مستقل كامل في التشريع والتقنين والتنظيم والحضارة والتمدن، كامل في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والأخلاقية والتعليمية والتربوية والأدبية والعائلية والعسكرية والقضائية والجنائية والإدارية والتوجيهية، كامل في قانون الدين والدولة والسلطة والشورى والإمارة والقيادة والحكم، سالم من كل عيب ونقيصة، وفتور وقصور، غير قابل للتغيير والتبديل، والزيادة والنقصان، والتحريف والتصحيف، كافل للحياة الطيبة النظيفة الكريمة، داع إلى النجاة والسلامة والسعادة والفلاح، منقذ من الويل والحرمان والقنوط والهلاك والانحلال والانهيار، مستقل غير مفتقر إلى نظم أخرى في مجال الاستلهام منها، بينما ترى أن القوانين والنظم الوضعية غير سالمة من العيب والنقيصة والقصور، غير مستقلة، غير كاملة، قابلة للتغيير والتبديل والتحريف والتصحيف، داعية إلى الويل والشقاء، والحرمان والقنوط، والغي والضلال والخيبة والخسران، والهلاك والدمار، والشر والفساد. ويحسن بي أن ألقي فيما يلي بعض الأضواء على كون الإسلام دين الاقتصاد والوسطية بالإيجاز مستمدا في ذلك من نصوص الكتاب والسنة، فأقول وبالله التوفيق والعصمة: إذا نظرت في كتاب الله تعالى وجدت أن الله تعالى أرشد عباده في كثير من الآيات إلى الاقتصاد في العبادة، وفي كل أمر ونهي، وحض على ذلك كثيرا، على سبيل المثال لا الحصر إنه تعالى نهى عن الإسراف في الأكل والشرب فقال: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين}. (سورة الأعراف: ٣١)

ونهى كذلك عن الإسراف في الإنفاق في الخير فقال: {وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين}. (سورة بني إسرائيل: ٢٦، ٢٧)

وقال في صفة المؤمنين الذين يختارون طريق الاقتصاد والاعتدال في الإنفاق: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}. (سورة الفرقان: ٦٧)

وأرشد سبحانه كذلك عباده إلى اختيار طريق الاقتصاد في الإنفاق في سبيله فقال: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا} (سورة بني اسرائيل: ٢٩).

وأخبر سبحانه وتعالى حاكيا عن لقمان الحكيم حين قال لابنه واعظا: {واقصد في مشيك واغضض من صوتك .. الآية} (سورة لقمان: ١٩)

وأخبر الله تعالى أن الأمة المحمدية أمة وسط فقال: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا}. (سورة البقرة:١٤٣)

تدل هذه الآية الكريمة على أن الأمة المحمدية أمة وسط، وأن الإسلام دين الوسطية والاعتدال جاء ليرشد الإنسان إلى اختيار طريق الاقتصاد في كل أمر من أمور الدين والدنيا.

الهدي النبوي في الوسطية:

إذا درست السيرة النبوية الشريفة – على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات – وجدت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالاقتصاد في الأعمال كلها، وحثهم على ذلك كثيرا، وكلفهم بما يطيقون من الأعمال، ونهاهم عن التشديد والتعمق فيها حتى لا يشق عليهم فعل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، وسد باب التعمق في الدين لئلا تقع أمته في الحرج والمشقة والضرر.

ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وحبل ممدود بين ساريتين فقال: ما هذا؟ قالوا: لزينب تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال: حلوه ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر قعد". [1]

وحث الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك أصحابه – رضي الله عنهم – على الاقتصاد في العبادة، واجتناب التعمق فيها، ففي صحيح مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصير، وكان يحجره من الليل فيصلي فيه، فجعل الناس يصلون بصلاته، ويبسطه بالنهار، فثابوا ذات ليلة، فقال: "يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأن

---

[1] كتاب الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم الخ، طبع الهند.

أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قل، وكان آل محمد صلى الله عليه وسلم إذا عملوا أثبتوه". [١]

وكذلك تجد الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أنكر على الحولاء بنت تويت – رضي الله عنها – وهي امرأة من بني أسد – وكره فعلها حين بلغه أنها لا تنام الليل وتصلي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذوا من الأعمال ما تطيقون" كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي امرأة فقال: من هذه؟ فقلت: امرأة لا تنام تصلي، قال: "عليكم من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل حتى تملوا" [٢] الحديث.

ففي هذه الأحاديث النبوية الشريفة الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها.

وكذلك من يدرس الهدي النبوي الشريف يعرف جيدا أن فعل الرسول صلى الله عليه وسلم كان دائما بين الطول الظاهر والتخفيف الماحق، ففي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: كنت أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت صلاته قصدا، وخطبته قصدا". [٣]

وأنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله عنه حين شكى قومه إليه تطويل صلاته إنكارا شديدا فقال: "أفتّان أنت؟ اقرأ بكذا، واقرأ بكذا كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: "كان معاذ يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم يأتي، فيؤم قومه، فصلى ليلة مع النبي صلى الله عليه وسلم العشاء، ثم أتى قومه، فأمهم، فافتتح بسورة البقرة، فانحرف رجل، فسلم، ثم صلى وحده، وانصرف فقالوا: أنافقت يا فلان؟ قال: لا، والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا

---

[١] كتاب الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم الخ.

[٢] كتاب الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم الخ.

[٣] كتاب الجمعة.

رسول الله! إنا أصحاب نواضح، نعمل بالنهار، وإن معاذا صلى معك العشاء، ثم أتى، فافتتح بسورة البقرة، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على معاذ فقال يا معاذ! أفتان أنت؟ اقرأ بكذا واقرأ بكذا، قال سفيان: فقلت لعمرو: إن أبا الزبير حدثنا عن جابر أنه قال: اقرأ "والشمس وضحاها" "والضحى" "والليل إذا يغشى" "وسبح اسم ربك الأعلى". (١)

ونجد كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرشد الأئمة إلى تخفيف الصلاة مع الجماعة في المسجد لئلا يلحق بالمأمومين ضرر ومشقة، ففي صحيح مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إني لأتاخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال: يا أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليوجز، فإن من ورائه الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة. (٢)

وكان من هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا سمع بكاء الصبي مع أمه وهو في الصلاة قرأ بالسورة القصيرة، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع بكاء الصبي مع أمه وهو في الصلاة، فيقرأ بالسورة الخفيفة، أو بالسورة القصيرة. (٣)

وكذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم أنه نهى أصحابه رضي الله عنهم عن الوصال رحمة بهم وشفقة عليهم لئلا يتكلفوا ما يشق عليهم، والوصال هو صوم يومين فصاعدا من غير أكل أو شرب بينهما، ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل يا رسول الله، قال: "إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى". (٤)

---

(١) كتاب الصلاة.

(٢) كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام.

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام.

(٤) كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال.

ونجد كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – عن قيام الليل كله وسرد الصيام حين قال: "لأقومن الليل، ولأصومن النهار" عندما بلغه ذلك، فأرشده صلى الله عليه وسلم إلى الصيام والإفطار، والقيام والنوم، وأمره باختيار طريقة الاقتصاد والتوسط في ذلك، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال: أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يقول: "لأقومن الليل ولأصومن النهار ما عشت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آنت الذي تقول ذلك؟ فقلت له: قد قلته يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، صم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشرة أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر، قال: قلت: "فإني أطيق أكثر من ذلك قال: صم يوما وأفطر يومين، قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله! قال: صم يوما وأفطر يوما، وذلك صيام داود عليه السلام، وهو أعدل الصيام، قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال عبد الله بن عمرو: لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ من أهلي ومالي". [1]

وفي هذا الحديث الشريف إرشاد بليغ إلى الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق.

والإسلام دين الاقتصاد والاعتدال، وليس دين شدة وتعمق وعنف وعنت، ودين ضرر وضرار كديانات أخرى، ولذلك ذم الله تعالى قوما أكثروا العبادة ثم فرطوا فيها فقال تعالى: {ورهبانية ابتدعوها ما كتبنا عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} (سورة الحديد: ٢٧).



[1] كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به الخ.

أعلام السنة

الشيخ المحدث محمد عبد الرحمن المباركفوري

حياته وأعماله

(٤)

الشيخ عبد الكبير عبد القوي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة السلفية، بنارس

التعريف بمؤلفاته المطبوعة والمخطوطة:

إن المحدث المباركفوري ترك للناس نحو عشرين مؤلفا ما بين صغير وكبير ومخطوط ومطبوع، باللغة العربية والأردية، وأغلبها في المسائل الاختلافية بين أصحاب المذاهب، جمعها وألفها نظرا لما رأى من الحاجة الدينية والخدمة الإسلامية، بحيث ذب فيها عن السنة النبوية، ودفع طعن الجهال وأزاح تلبيساتهم.

ومما يبين مدى أهمية مؤلفاته الجليلة في العلم والتحقيق أن الناس على اختلاف مذاهبهم تلقوها بقبول حسن، وذكروها بثناء جميل حتى طار صيتها في أنحاء العالم.

ونود قبل ذكر المؤلفات أن يكون القارئ على بينة من الظروف والحالات التي عاش فيها المحدث المباركفوري ليتضح له المنهج المعين الذي مشى عليه في مؤلفاته، ألا وهو الذب عن السنة النبوية والدفاع عن ساحتها بكل قوة وصراحة. وما كان ذلك إلا لأنه رأى علماء طائفة كبيرة من طوائف المسلمين العديدة في الهند أنهم يبذلون كل ما يملكون من الإمكانيات في نشر مذهبهم الفقهي المعين ومساندته بطرق مختلفة الأساليب، وإظهاره بأنه هو المذهب الصحيح، ولو أدى بهم ذلك إلى تأويلات باردة وتحريفات سخيفة في القرآن والحديث. [1] فكان ذلك مما يقض مضاجع كثير من العلماء الذين كانوا يرون التمسك بالقرآن والحديث وعدم الخروج عنهما ولو قيد شعرة من أولى الواجبات على المسلم المؤمن، وكانوا يتأسفون ويتألمون كثيرا من مثل

---

[1] راجع لمعرفة بعض النماذج من ذلك إلى مؤلفات علماء الأحناف في الهند، نحو مؤلفات الشيخ رشيد أحمد والشيخ النيموي والشيخ أنور شاه كشميري والشيخ أشفاق الرحمن وغيرهم من علماء ديوبند.

هذه العمليات، ويتصدون للرد عليها والكشف عنها، والمحدث المباركفوري هو واحد من هؤلاء الذين قاموا في وجه كل من أراد النيل من السنة النبوية أو تأويلها بغير ما أنزل الله به من سلطان حسب رغبته وهواه، فكان منهجه في جميع مؤلفاته هو البحث والتنقيب عن كل مسألة من المسائل في ضوء الأدلة من القرآن والسنة واختياره ومساندته لكل ما يراه فيها صوابا مؤيدا بالأدلة دون أن تأخذه في ذلك لومة لائم، مبتعدا عن كل ما يخالفه المنهج العلمي في البحث والتحقيق من التقليد الأعمى والتعصب المذهبي، مع الاعتراف بأنه إنسان كغيره يخطئ ويصيب، ولكن كان همه دائما الوصول إلى الصواب.

وأكبر مؤلفاته وأحسنها والذي حاز لإعجاب كثير من العلماء، ولا تكاد تخلو منه مكتبة من المكتبات الإسلامية في العالم هو:

١ – تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي:

فإنه لا يخفى على أحد له أدنى إلمام بالمصادر التشريعية في الإسلام أن جامع الترمذي هو أحد الكتب الأمهات الستة في الحديث، وتأتي رتبتها بعد الصحيحين كما قاله حاجي خليفة. [1]

وقد أثنى عليه العلماء وبالغوا في الثناء، ويكفينا لمعرفة درجته ورتبته ما قاله الإمام الترمذي (٢٧٩هـ) رحمه الله تعالى بنفسه عن هذا الكتاب:

"صنفت هذا الكتاب، فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب – يعني الجامع – فكأنما في بيته نبي يتكلم". [2]

ومما يشير إلى علو مكانته وسمو درجته أنه تناوله كثير من العلماء بشرحه واختصاره وخدمته بشتى الأساليب، فقد ذكر فؤاد سزكين:

"١٢/ عالما من العلماء الذين خدموا هذا الكتاب الجليل بالشرح فقط". [3]

---

[1] انظر كشف الظنون ٥٥٩، وقيل: "انحطت رتبته عن سنن أبي داود والنسائي لإخراجه حديث المصلوب والكلبي وأمثالهما" والمسألة قد اختلف فيها العلماء (راجع لمعرفة الصواب فيها إلى مقدمة التحفة: ١ / ٣٦٤).

[2] تذكرة الحفاظ: ٦٣٤.

[3] تاريخ التراث العربي: ١ / ٢٤٣، ٢٤٤.

بينما ذكر المحدث المباركفوري أيضا حوالي ١٢ / شخصا قد اشتغلوا بشرحه مع أن العديد منهم لم يذكرهم فؤاد سزكين. [١]

واشتهر من بين هذه الشروح الكثيرة شرح أبي بكر محمد بن العربي المعافري (٥٤٣هـ) المسمى بـ "عارضة الأحوذي في شرح الترمذي" [٢] وهو شرح مفصل مبسوط ومطبوع متداول، وعلى حد قول السيوطي (٩١١هـ) إنه لم يشرحه أحد كاملا إلا القاضي أبوبكر ابن العربي. [٣] وهذا يعتبر إلى عهده، وأما بعده فقد ألفت عدة شروح لجامع الترمذي، ومع ذلك كله فقد بقيت حاجة الناس إلى شرح متوسط غير مطول ولا مختصر، قد التزم فيه بشرح الكتاب نفسه بدون تعرض للمسائل التي لا تمت بكبير صلة إليه وبدون أن يأخذ الشارح التعصب المذهبي أو التقليد الأعمى لأحد من الأئمة المتبوعين، وبدون إطناب في المسائل الفقهية التي لا تكون الحاجة إليها كبيرة.

وأما الشروح التي ألفت فهي لا تخلو إما أن تكون مع حسنها وجودتها ناقصة غير كاملة مثل شرح ابن سيد الناس أبي الفتح محمد بن محمد (٧٣٤هـ) بحيث إنه لم يصل في شرحه إلا إلى ثلثي الجامع في نحو عشرة مجلدات. [٤]

وشرح الحافظ زين الدين العراقي (٨٠٦هـ) وهو تكملة لشرح ابن سيد الناس، وعلى تصريح السيوطي (٩١١هـ) إنه أيضا لم يتم.

وإما أن تكون مفقودة، أصابتها يد الحدثان، مثل شرح ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) كما يقول في فتح الباري عند شرحه لحديث حذيفة: "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سباطة قوم فبال قائما":

"ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عنه، أي عن البول قائما شيء، كما بينته في أوائل شرح الترمذي". [٥]

---

[١] مقدمة تحفة الأحوذي ١ / ٣٦٩ – ٣٨٥ (وإذا أردت أن تعرف جميع من خدم هذا الكتاب الجليل بالشرح وغيره من أنواع الخدمة فارجع إلى مقدمة تحفة الأحوذي: ١ / ٣٦٩ – ٣٨٥، وتاريخ التراث العربي: ١ / ٢٤٣، ٢٤٥، وسيرة البخاري (أردو) ٤٥٦ – ٤٦٣، وكشف الظنون: ٥٥٩).

[٢] مقدمة تحفة الأحوذي: ١ / ٣٦٩.

[٣] نقلا عن مقدمة تحفة الأحوذي: ١ / ٣٦٩.

[٤] كشف الظنون: ٥٥٩.

[٥] فتح الباري: ١ / ٣٣٠.

وشرح الحافظ ابن رسلان البلقيني (٨٠٥هـ) المسمى بـ "العرف الشذي على جامع الترمذي ولكنه لم يكمله". [١]

وإما أن تكون شبه مفقودة، لا تصل إليها أيدي الناس، لأنها محفوظة في المكتبات ولم يقدر لها أن تخرج إلى الشمس كما هي حال كثير منها.

وإما أن تكون مطولة أطنب فيها صاحبها في مباحث غير ضرورية لا طائل تحتها وأغمض عن شرح العبارات الغامضة وحل المشكلات العويصة، مثل ما نجد في شرح ابن العربي (٥٤٣هـ) كما يقول الشيخ عبيد الله المباركفوري. [٢]

وإما أن تكون أصحابها من المقلدين وأتباع المذاهب المعينة الذين يعتبرون الخروج عن مذهبهم مخالفة لما يأمر به الإسلام، فأعار مثل هؤلاء الشراح جل عنايتهم واهتمامهم لمساندة مذاهبهم ووجهاتهم ولو أدى بهم ذلك إلى قلب الحقائق وتأويل الأحاديث، مثل ما نجد في "العرف الشذي على جامع الترمذي" لأنور شاه كشميري، و "الطيب الشذي في شرح الترمذي" لأشفاق الرحمن كاندهلوي من علماء ديوبند.

وبناء على هذا كله قام المحدث المباركفوري بشرح هذا الجامع الجليل الذي قال فيه طاش كبرى زاده:

"وهذا كتابه الصحيح أحسن الكتب وأكثرها فائدة وأحسنها ترتيبا وأقلها تكرارا، وفيه ما ليس في غيره من ذكر المذاهب ووجوه الاستدلال وتبيين أنواع الحديث من الصحيح والحسن والغريب، وفيه جرح وتعديل". [٣]

فأحسن القيام به ووفاه حقه إلى حد بعيد المدى، كما سنعرف ذلك في كلام بعض العلماء، وأما الآن فمن المناسب أن أشير إلى المنهج الذي مشى عليه المباركفوري في شرحه لهذا الجامع العظيم بغاية من الإيجاز، لأنه قد ذكر صاحب ترجمته في خاتمة المقدمة هذه الأمور التي سأشير إليها فيما يلي، ويظهر جليا كل ذلك بل أكثر منه لكل من طالع في تحفة الأحوذي ونظر فيه:

١ – ترجمة كل راو من رواة جامع الترمذي بقدر الضرورة.

---

[١] كشف الظنون: ٥٥٩.

[٢] سيرة البخاري: ٤٦٠ (الهامش).

[٣] مفتاح السعادة ومصباح السيادة: ٢ / ١٣٨.

٢ – تخريج الأحاديث التي رواها الترمذي في جامعه من المصادر الأخرى.

٣ – إيضاح الإشكالات الإسنادية والمتنية، وحلها في ضوء أقوال الأئمة.

٤ – تخريج الأحاديث التي أشار إليها الترمذي في كل باب بقوله: "وفي الباب عن فلان وفلان"، وذكر ألفاظها حسب الإمكانية والطاقة، والإضافة على الأحاديث المشار إليها في بعض الأماكن.

٥ – ذكر الأحاديث التي لم يشر إليها الترمذي في كثير من الأبواب، وهي توافق أصل حديث الباب وتخريجها.

٦ – ذكر تصحيح وتحسين أئمة الحديث الآخرين عقب تصحيح وتحسين الترمذي للأحاديث وبيان ما وقع فيه تساهل في تصحيحه أو تحسينه.

٧ – ذكر الأدلة لكل رأي من آراء العلماء التي يشير إليها الترمذي بدون ذكر الأدلة في المسائل التي اختلف فيها الأئمة، ثم بيان الراجح منها بالأدلة والرد على الآراء المرجوحة بضوء من القرآن والسنة مبتعدا عن التعصب المذهبي أو اتباع الهوى متمسكا بقوانين البحث والتحقيق في المسائل المختلف فيها وأخذ الحيطة في ترجيح الأقوال.

إلى غير ذلك من الأمور التي التزمها الشيخ المباركفوري في شرحه العظيم، والمقام لا يتسع للخوض في تفاصيلها، ولذلك نقتصر على هذه الإشارة، فإن العاقل تكفيه الإشارة.

ومن الأمور التي لا مناص من إيضاحها أن بعض العلماء يقولون عنه أنه كثير الرد على الأحناف وشديد الانتصار لأهل الحديث. [1]

فأقول: إن المحدث المباركفوري لم يبلغ في الانحطاط العلمي والخلقي أو في اتباع الهوى والتعصب الأعمى إلى درجة أنه كان يكثر الرد على آراء الأحناف ووجهاتهم ومعتقداتهم لمجرد كونها هي آراء الأحناف ومعتقداتهم، وإنما كان يرد عليها وعلى غيرها من كثير من آراء العلماء الآخرين وأقوالهم، لأنها مخالفة للأدلة الصحيحة من القرآن والسنة، أو لأن مناهج البحث العلمي تقتضي منه ذلك، لا لأن اتباعه للهوى أو تعصبه الأعمى كان يدفعه على الرد أو الدفاع عن الباطل، فإنه كان بعيدا كل البعد باعتراف من العلماء حتى العلماء الأحناف من التعصب. [2] ويبني جميع

[1] انظر نزهة الخواطر: ٨ / ٢٤٢، تذكرة علماء مباركفور: ١٥٢ – ١٥٣.

[2] انظر ما كتبه الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي في مجلة "المنير" الأسبوعية.

بحوثه ومناقشاته للمسائل على الأدلة القرآنية والحديثية والمنهج العلمي المتبع عند المحققين من العلماء المتقدمين، اللهم إلا إذا ما وجدنا عنده في بعض الأحايين شيئا من الحماس في المناقشات العلمية فهو في الحقيقة رد فعل لتلك المحاولات التي بذلت أو لا تزال تبذل في مساندة بعض الآراء أو الوجهات المعينة بطريق غير علمي أو بطريق تأويل الأدلة وتحريفها حسب ما توحي إليه الأهواء.

وبعد هذا يحسن بنا أن نعرف مكانة هذا الكتاب عند العلماء والمحققين، فإنه أخذ في الحقيقة مكانة مرموقة من نفوسهم بحيث طار صيته في أنحاء العالم في وقت قليل، وتناوله الناس في كل مكان بقبول حسن وأثنوا عليه بالثناء الجميل نظرا لما وجدوا فيه من مباحث جليلة ومناقشات علمية وحل صحيح للعبارات الغامضة والمشكلات العويصة، فيقول الشيخ عبيد الله المباركفوري رحمه الله عن هذا الشرح الجليل:

"لو وصفناه بأنه هو أعز شروح لجامع الترمذي ظهر على وجه الأرض لم تر العيون مثله، لم نكن مجانبين للحق ولا مبالغين فيه". [١]

هذا، وإنه قد استفاد منه كثيرا في كتابه "مرعاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح" ويذكره فيه من حيث هو مرجع له بغاية من الاحترام والتبجيل أثناء إيضاحه وشرحه ومناقشاته.

ووصفه الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف أثناء ذكره للترمذي وجامعه في مقدمة كتابه "مختارات الأحاديث والحكم النبوية" بقوله:

"وأنفع شروحه التي رجعت إليها تحفة الأحوذي للمباركفوري الهندي المتوفى سنة ١٣٥٣هـ". [٢]

وقال فيه الأستاذ عبد الحي الحسني:

"وألف تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي في ثلاث مجلدات كبار لبل في أربع مجلدات] وأفرد جزءا بالمقدمة، وقد وقع هذا الكتاب من علماء هذا الشأن موقعا كبيرا". [٣]

ونرى الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي أيضا يذكر هذا الكتاب العظيم ببالغ الثناء، ويعتبره دليلا قاطعا على كمال علم المحدث المباركفوري ومعرفته، وهو يبين

---

[١] انظر سيرة البخاري ٤٦١ (هامش).

[٢] انظر ص ١١.

[٣] نزهة الخواطر: ٨ / ٢٤٢.

علو مرتبته في حل المشكلات الحديثية وشرحها، ونظرا لما بذل المباركفوري من مجهودات علمية في غير موضع من مواضع الكتاب، ولما قدم للناس من بحوث نافعة تحقيقية لا يسعهم إلا أن يعترفوا له بفضله وكماله، فإنه قد وفى كل باب حقه من البحث والتحقيق بحيث لا يمكن أن يتصور أكثر منه.

وأسلوبه في جميع المباحث والمناقشات أسلوب علمي وبالغ في التحقيق والتقيب إلى أبلغ الحدود، ومع أنه قام بالتدليل على آراء جماعة السلف (أهل الحديث) ووجهاتهم، لكن أسلوبه بعيد كل البعد عن أسلوب الجدال والمراء. [١]

كما وجدنا القاضي أطهر المباركفوري والدكتور محمد يونس النغرامي الندوي، وهما في صدد ذكر لهذا الشرح الجليل يقدران الجهود المبذولة في تأليفه بقولهما:

"إن تخريج الأحاديث والاشتغال بفن الجرح والتعديل مع الكلام على رجال الأحاديث ومتونها وأسانيدها قبل مدة تقارب خمسين عاما يعد من أصعب الأعمال وأدقها، لأن الكتب المتعلقة بهذا الشأن لم تكن متوفرة لكل أحد في ذلك العهد، كما هي متوفرة في أيامنا هذه، فلو نظرنا من هذه الناحية إلى أعمال المحدث المباركفوري ومجهوداته يتضح لنا أهميتها وتتجلى عظمتها، لأنه قام بها في عهد لم يظهر فيه كثير من الكتب القديمة والجديدة التي سهلت الأمر إلى حدما". [٢]

وأيضا مما ينبغي معرفته هو أن المحدث المباركفوري بدأ يضعف بصره بعد انتهائه من تبييض المجلدين الأولين حتى احتاج إلى من يساعده في الكتابة والرجوع إلى المصادر والمراجع، وحصل شرف مساعدته ومعاونته – كما تحدث بذلك الشيخ عبيدالله المباركفوري – لثلاثة من طلاب العلم:

١ – فضيلة الشيخ عبيد الله الرحماني المباركفوري رحمه الله تعالى.

٢ – الشيخ الجليل عبد الصمد المباركفوري رحمه الله تعالى.

٣ – الشيخ محمد المهموي اللاهوري رحمه الله تعالى. [٣]

(يتبع)

❖❖❖

---

[١] انظر مجلة "المنير" الأسبوعية.

[٢] تذكره علماء مباركفور (١٥٣، هندوستان میں عربی علوم وفنون کے ممتاز علمائ اور ان کی خدمات (العلماء الأفاضل الهنود ومجهوداتهم في العلوم العربية وفنونها) ١١٩.

[٣] انظر سيرة البخاري ٤٦٢ (هامش).

مفهوم المخالفة

الشيخ أبو الحسن عبيد الله الرحماني المباركفوري رحمه الله

تعليق: الشيخ محمد أسلم المباركفوري
الأستاذ بالجامعة السلفية، بنارس

اعلم أن المفهوم ينقسم إلى مفهوم موافقة، ويقال له: التنبيه وفحوى اللفظ أيضا[١].

ومفهوم مخالفة، ويسمى: دليل الخطاب[٢]، لأن دليله من جنس الخطاب، أو لأن الخطاب دال عليه[٣].

فمفهوم الموافقة: هو فهم الحكم في المسكوت من المنطوق، بدلالة سياق الكلام ومقصوده، ومعرفة وجود المعنى في المسكوت بطريق الأولى، قاله الموفق ابن قدامة في روضة الناظر (٢ / ٢٠٠)، والأخصر من هذا قول الغزالي في المستصفى (٢ / ١٩٠): أنه فهم غير منطوق من المنطوق، بدلالة سياق الكلام ومقصوده، والأخصر منهما قول الطوفي [٤] في مختصره: فهم الحكم، في غير محل النطق، بطريق الأولى[٥].

وإنما سمي مفهوم الموافقة، لأن المسكوت عنه، يوافق المنطوق به في الحكم، وإن زاد عليه في التاكيد، فإن كان أولى بالحكم عن المنطوق به، فيسمى فحوى الخطاب[٦]، وإن كان مساويا له، فيسمى لحن الخطاب[٧]، وحكوا [٨] في الفرق بين

---

[١] وهو دلالة النص عند الحنفية. فواتح الرحموت (١ / ٤١٤).

[٢] انظر: روضة الناظر (ص ١٣٩) والذخيرة للقرافي (١ / ٥٨).

[٣] مختصر أصول الفقه لابن اللحام (ص ١٣٢) وإرشاد الفحول (ص ١٧٩).

[٤] هو: نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي، المتوفى سنة ٧١٦هـ. انظر ترجمته في شذرات الذهب (٦ / ٣٩).

[٥] مختصر الطوفي (ص ١٢١) وانظر: نزهة الخاطر العاطر لابن بدران (٢ / ١٢٧).

[٦] ويسمى أيضا: المفهوم الأولوي. شرح الكوكب المنير (٣ / ٤٨١) وجمع الجوامع (١ / ٢٤٠) ويسميه الإمام الشافعي بالقياس الأولي. الرسالة (ص ٥١٣) والقياس الجلي كما في التمهيد في أصول الفقه (٢ / ٢٢٧) وفي المختصر لابن اللحام (ص ١٣٢).

[٧] والمفهوم المساوي، قال القرافي: وهو دلالة الاقتضاء. الذخيرة (١ / ٥٨).

[٨] منهم: الماوردي والروياني. ذكره الشوكاني في إرشاد الفحول (ص ١٧٨).

فحوى الخطاب ولحن الخطاب وجهين: أحدهما: أن الفحوى مانبه عليه اللفظ، واللحن ما لاح في اللفظ، وثانيهما: أن الفحوى ما دل على ما هو أقوى منه، واللحن ما دل على مثله.

وأمثلة مفهوم الموافقة كثيرة في الكتاب والسنة وكلام الناس، كفهم تحريم الشتم والضرب والقتل من قوله تعالى: "فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما" (الإسراء: ٢٣)، فمنطوقه تحريم التأفيف والانتهار، ومفهومه بطريق التنبيه والفحوى، تحريم الضرب وغيره، من الإيلامات الزائدة على التأفيف والانتهار بطريق أولى، لأنه إذا كان التأفيف الذي هو ضعيف، بالنسبة إلى الضرب محرما، فلابد أن يكون الضرب محرما من باب أولى، وكفهم مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه من قوله تعالى: "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما" (النساء: ٢٠)، وكفهم ما وراء الذرة والدينار من قوله تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره" (الزلزلة: ٧)، وقوله: "ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك" (آل عمران: ٧٥)، وكذلك قول القائل: ما أكلت له برة، ولا شربت له شربة، ولا أخذت من ماله حبة، فإنه يدل على ما وراءه [١].

وشرطوا في مفهوم الموافقة، معرفة المعنى في الأدنى، ومعرفة وجوده في الأعلى، يعني: أن شرط مفهوم الموافقة فهم المعنى، وما سيق له الكلام في محل النطق كالتعظيم ونحوه، فلولا معرفتنا بأن الآية الأولى سيقت لتعظيم الوالدين واحترامهما، لما فهمنا معنى الضرب والقتل من منع التأفيف، إذ قد يقول السلطان إذا أمر بقتل ملك، لمنازعته له في ملكه، لا تقل له أف لكن اقتله، وقد يقول: والله ما أكلت مال فلان، ويكون قد أحرق ماله فلا يحنث، والحاصل أنا فهمنا من آية: "ولا تقل لهما أف" (الإسراء:٢٣)، أن المعنى المقتضي لهذا النهي، هو تعظيم الوالدين، فلذلك فهمنا تحريم الضرب والقتل بطريق أولى، حتى لو لم نفهم من ذلك تعظيما، لما فهمنا تحريم الضرب والقتل أصلا، لما نفى التعميم الأعم، دل على نفي الضرب الأخص بطريق أولى.

---

[١] انظر: المستصفى (٢ / ١٩٠) والتمهيد في أصول الفقه للكلوذاني (١ / ٢٠ – ٢١).

وبالجملة شرط مفهوم الموافقة: أن لا يكون المعنى في المسكوت عنه أقل مناسبة للحكم من المنطوق به، بل يكون أسبق إلى الفهم من المنطوق، أو هو معه وليس متأخرا عنه، أي يكون مساويا له، والقول بمفهوم الموافقة من حيث الجملة مجمع عليه[١]. قال ابن رشد: لا ينبغي للظاهرية أن يخالفوا في مفهوم الموافقة، لأنه من باب السمع، والذي يرد ذلك، يرد نوعا من الخطاب[٢]، وقال الزركشي (٣ / ١): وقد خالف فيه ابن حزم[٣]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن خلاف هذا مكابرة[٤]، كذا في إرشاد الفحول للشوكاني، ص: ١٥٦.

ومما ينبغي ذكره أن مفهوم الموافقة ينقسم إلى قاطع، كآية التأفيف وما شاكلها، وإلى ظني غير قاطع، كقولهم: إذا ردت شهادة الفاسق، فالكافر أولى، لأن الكفر فسق وزيادة، فهذا ليس بقاطع، إذ لا يبعد أن يقال: الفاسق متهم في دينه، والكافر يحترز من الكذب لدينه، والظني إما صحيح واقع في محل الاجتهاد، كرد الشهادة. أو فاسد، كنحو قول الشافعية [٥]: إذا جاز السلم في المؤجل، ففي الحال أجوز، ومن الغرر أبعد، إذا المؤجل على غرر، هل يحصل؟ أو لا يحصل؟ والحال متحقق الحصول في الحال، فهو أولى بالصحة، فإنه لابد من اشتراكهما في المقتضى، وليس المقتضى لصحة السلم المؤجل بعده من الغرر لتلحق به الحال، فالغرر في العقود مانع من الصحة لا مقتض لها، والحكم إنما يثبت بوجود مقتضيه ومصححه، لا لانتفاء مانعه، لأن المانع (ما) يلزم من وجوده العدم، ولا يلزم من عدمه وجود ولا عدم [٦]، والمقتضي

---

[١] الإحكام للآمدي (٣ / ٦٧، ٧١) ونسبه ابن اللحام وغيره إلى أكثر العلماء. المختصر (ص ١٣٢).

[٢] بداية المجتهد (١ / ٤).

[٣] انظر: الإحكام لابن حزم (٧ / ١١٥٣) حيث قرر التوقف فيه.

[٤] مجموع الفتاوى (٢١ / ٢٠٧، ٢٧ / ٢٥٠، ٣١ / ١٣٦) ونزهة الخاطر العاطر لابن بدران (٢ / ١٢٨) وشذه في المسودة (ص ٣١٠). وقال الشنقيطي في أضواء البيان (١ / ٤٩٦): وخلافه في مثل هذا لا أثر له.

[٥] انظر: الأم (١ / ١٠٠٩) وكفاية الأخيار (١ / ٣٨٦) والأشباه والنظائر (ص ٥٢٣).

[٦] شرح الكوكب المنير (١ / ٤٥٦).

لصحة السلم، هو الاتفاق في الأجل، على ما قرر في كتب الفروع، كالأجل في الكتابة، وهو منتف في الحال، والغرر مانع له، لكنه احتمل في المؤجل رخصة وتخفيفا للمقتضى، هو الارتفاق، فلا يصح الارتفاق [١].

وأما مفهوم المخالفة: فهو أن يكون المسكوت عنه مخالفا للمذكور في الحكم إثباتا ونفيا، فيثبت للمسكوت عنه نقيض حكم المنطوق به[٢].

وحقيقة الاستدلال بتخصيص الشيء بالذكر، على نفي الحكم عما عداه، وإنما سمي مفهوما، لأنه مفهوم مجرد لا يستند إلى منطوق، وإلا فما دل عليه المنطوق أيضا مفهوم [٣]، ومثاله قوله تعالى: "ومن قتله منكم متعمدا" (المائدة: ٩٥)، وقوله عليه السلام في سائمة الغنم، الزكاة [٤]، والثيب أحق بنفسها من وليها [٥]، ومن باع نخلة مؤبرة فثمرتها للبائع [٦]، فتخصيص العمل بوجوب الجزاء به يدل على نفي وجوب الجزاء في قتل الصيد خطأ، وهو أحد القولين لأهل العلم[٧]، وكذا تخصيص السوم

---

[١] انظر: نزهة الخاطر العاطر (٢ / ١٢٩)

[٢] انظر: إرشاد الفحول (ص ١٧٩).

[٣] المستصفى (٢ / ١٩١).

[٤] ورد بمعناه من حديث أبي بكر – رضي الله عنه – أخرجه البخاري (١٤٥٤) وأبوداود (١٥٦٧) وأحمد في مسنده (١ / ١١ – ١٢) وصححه الأئمة وكذا الحاكم في المستدرك (١ / ٣٩٢) وقال: صحيح على شرط مسلم أيضا. ولا عبرة بمن طعن فيه.

[٥] أخرجه مسلم (٦٧ / ١٤٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[٦] أخرج البخاري (٢٢٠٤، ٢٢٠٦، ٢٣٧٩، ٢٧١٦) ومسلم (٧٧ / ١٥٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

[٧] وهو قول أحمد بن حنبل في رواية. وهو مروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير. وبه قال الطبري وطاوس وأبوثور وابن المنذر وداود الظاهري.

قال ابن كثير بعد ذكر قول طاوس: هذا مذهب غريب، وهو متمسك بظاهر الآية.

وذهب الجمهور إلى أنه لا فرق بين الخطأ والعمد في قتل الصيد في وجوب الجزاء، رجحه ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٤٨) وقال: والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. وقال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي. ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: {ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه} وجاءت السنة من أحكام النبي صلى الله عليه وسلم وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضا فإن قتل الصيد إتلاف. والإتلاف مضمون في العمد، وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم، انتهى.

انظر المسألة في: تفسير القرطبي (٦ / ٣٠٧ – ٣٠٨) والمغني (٥ / ٣٩٦) وبداية المجتهد (١ / ٣٥٩).

والثيوبة والتأبير بهذه الأحكام، يدل على نفي الحكم عما عداها، ومن أمثلته قوله تعالى: "ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات" (النساء: ٢٥)، فتخصيص عدم نكاح الإماء بعدم الطول، يدل على أن واجد الطول لا يجوز له نكاح الإماء [١]، ففي الآية مفهومان: أحدهما هذا، والثاني: لا ينكح إلا أمة مؤمنة، وغير ذلك من الأمثلة.

ومفهوم المخالفة على أنواع كما سيجيء. وهو بجميع أنواعه حجة الجمهور (أحمد ومالك والشافعي وأكثر أصحابهما، وأكثر المتكلمين) [٢] إلا مفهوم اللقب، وهو الحق عندي، وأنكرت طائفة منهم أبوحنيفة وأصحابه وغيرهم [٣] الجميع لأمور خمسة، ذكرها الغزالي في المستصفى (٢ / ٢٠٤)، والموفق ابن قدامة في روضة الناظر (٢ / ٢٠٤)، وقد أجاب عن بعضها الموفق فارجع إليها.

وذكر شمس الأئمة السرخسي من الحنفية في كتاب السير، أنه ليس بحجة في خطابات الشرع، وأما في مصطلح الناس وعرفهم فهو حجة، وعكس ذلك بعض المتأخرين من الشافعية، فقال: هو حجة في كلام الله ورسوله، وليس بحجة في كلام المصنفين وغيرهم، كذا حكاه الزركشي. [٤] (إرشاد الفحول، ص: ١٥٧).

---

[١] انظر: تفسير القرطبي (٥ / ١٣٦) وبداية المجتهد (٢ / ٤٢).

[٢] وبه قال أبو عبيد وجماعة من أهل العربية. الإحكام للآمدي (٣ / ٧٢).

[٣] انظر: فواتح الرحموت (١ / ٤١٤).

وبه قال القاضي أبو بكر وابن سيريج والقفال الشاشي وجماهير المعتزلة كما ذكره الآمدي في الإحكام (٣ / ٧٢)، وانظر: تيسير الوصول إلى علم الأصول (ص ٥٦٧) وقالوا بعدم حجية مفهوم المخالفة في كلام الشارع، فلا يجوز العمل به، فالنصوص تدل على ما يفهم من منطوقها، وأما المسكوت عنه فلا دلالة للنص عليه، وإنما يفهم حكمه من دليل آخر، كالبراءة الأصلية أو العدم الأصلي.

فقوله تعالى: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا} (الأنعام: ١٤٥) يدل على تحريم الدم المسفوح فقط، وهو منطوق النص، وأما حكم الدم غير المسفوح فليس في الآية دلالة على حكمه. وإنما يستفاد حكمه من دليل آخر، وهو الإباحة الأصلية.

[٤] البحر المحيط (٤ / ١٥)

واحتج القائلون بالمفهوم بدلائل شتى، فصلها الغزالي وأجاب عن جميعها، وقال ابن قدامة [١]: لنا (أي للقائلين بالمفهوم) دليلان: أحدهما: أن فصحاء أهل اللغة يفهمون من تعليق الحكم على شرط أو وصف، انتفاء الحكم بدونه (أي بدون الشرط والوصف)، بدليل ما روى يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: ألم يقل الله تعالى: "ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا" (النساء: ١١١)، فقد أمن الناس، فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته، رواه مسلم [٢]، فقد فهما من تعليق إباحة القصر على حالة الخوف وجوب الإتمام حال الأمن، وعجبا من ذلك، ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم: يقطع الصلاة الكلب الأسود، قال عبدالله بن الصلت لأبي ذر: ما بال الأسود من الأحمر من الأصفر؟، فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني؟ فقال: الكلب الأسود شيطان [٣]، ففهما من تعليق الحكم على الموصوف بالسواد، وانتفاءه عما سواه، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عما يلبس المحرم من الثياب؟ فقال: لا يلبس القميص ولا السراويلات ولا البرانس، فلولا أن تخصيصه المذكور بالذكر يدل على إباحة لبس ما سواه، لم يكن جوابا للسائل عما يجوز للمحرم لبسه [٤]، ثم ذكر الموفق الدليل الثاني مع الإيرادات الأربع التي أوردها منكروا المفهوم عليه، والجواب عنها مفصلا، فعليك أن تراجعها [٥].

---

[١] روضة الناظر (ص ١٤٠ – ١٤١).

[٢] في صحيحه (٤ – ٦٨٦).

[٣] أخرجه مسلم (٢٦٥ / ٥١٠)

[٤] أخرجه البخاري (٣٦٦) ومسلم (٢ / ١١٧٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

[٥] روضة الناظر (ص ١٤١).

والدليل الثاني – كما قاله الموفق ابن قدامة – هو:

أن تخصيص الشيء بالذكر لابد له من فائدة، فإن استوت السائمة والمعلوفة، فلم خص السائمة بالذكر مع عموم الحكم والحاجة إلى البيان شاملة للقسمين، بل لو قال: في الغنم الزكاة، لكان أخصر في اللفظ، وأعم في بيان الحكم. فالتطويل لغير فائدة يكون لكنة في الكلام وعيا، فكيف إذا تضمن تقوية بعض المقصود، فظهر أن القسم المسكوت عنه غير مساو للمذكور في الحكم.

ثم ذكر ابن قدامة – رحمه الله – الاعتراضات الأربع التي أوردها منكرو المفهوم عليه، مع الجواب عنها مفصلا. انظر: روضة الناظر (ص ١٤١ – ١٤٢).

أنواع مفهوم المخالفة: ذكر بعضها الغزالي [١] والموفق ابن قدامة [٢] مختصرة، ونذكرها مبسوطة ليسهل عليك فهمها واقتناصها.

النوع الأول: مفهوم الصفة: وهي تعليق الحكم على الذات بأحد الأوصاف، أي بذكر الاسم العام، ثم يعقب بصفة خاصة، فيكون مستدركا لعمومه بخصوص الصفة، مبينا أن المراد بعمومه المخصوص، نحو قوله عليه السلام: في الغنم السائمة الزكاة [٣]، فالغنم اسم عام، يتناول السائمة والمعلوفة، فاستدرك عمومه بخصوص صفة السائمة[٤]، وبين أنها المراد بعموم الغنم، وكذلك: من باع نخلا مؤبرا[٥]، فالنخل عام في المؤبر وغيره، فاستدرك عمومه مخصوص المؤبر، وبين أنه المراد من عموم النخل، والمراد بالصفة عند الأصوليين: تقييد لفظ مشترك المعنى بلفظ آخر، يختص ببعض معانيه، ليس بشرط ولا غاية، ولا يريدون به النعت فقط [٦]، وبمفهوم الصفة أخذ الجمهور [٧].

قال الشوكاني: وهو الحق لما هو معلوم من لسان العرب، أن الشيء إذا كان له وصفان، فوصف بأحدهما دون الآخر، كان المراد به ما فيه تلك الصفة دون الآخر،

---

[١] في المستصفى (٢ / ٢٠٤).

[٢] في روضة الناظر (ص ١٤٢ – ١٤٥).

[٣] تقدم تخريجه.

[٤] يعني: أن غير السائمة لايجب فيها الزكاة. انظر: التمهيد للكلوذاني (١ / ٢٢).

قال ابن رشد: دليل الخطاب في قوله عليه الصلاة والسلام: "في سائمة الغنم: الزكاة" يقتضي أن لا زكاة في غير السائمة. بداية المجتهد (١ / ٢٥٢). وقد قرر بضعف دليل الخطاب غير مرة في كتابه. وذهب مالك والليث إلى وجوب الزكاة، سواء كانت سائمة أو غير سائمة. وانظر: المغني (٤ / ١٢).

[٥] تقدم تخريجه.

[٦] انظر: إرشاد الفحول (ص ١٨٠).

[٧] انظر: المختصر في أصول الفقه لابن اللحام (ص ١٣٣) وبه قال الإمام الشافعي واختاره الإسنوي ومالك وأحمد وأبوعبيدة المعتمر بن المثنى، وأبو الحسن الأشعري وجماعة من الفقهاء. انظر: التمهيد (ص ٢٤٥) ونهاية السؤل (١ / ٣٦٤) والمسودة (ص٣٢٢).

وقال أبوحنيفة وأصحابه وبعض الشافعية والمالكية [1]: أنه لا يؤخذ به ولا يعمل عليه، ووافقهم من أئمة اللغة الأخفش وابن فارس وابن جني، قال الشوكاني: وقد طول أهل الأصول الكلام على استدلال هؤلاء المختلفين لما قالوا به، وليس في ذلك حجة واضحة، لأن المبحث لغوي، واستعمال أهل اللغة والشرع لمفهوم الصفة وعملهم به معلوم لكل من له علم بذلك. (إرشاد الفحول ص ١٨٥).

النوع الثاني: مفهوم العلة: وهو تعليق الحكم بالعلة، نحو: حرمة الخمر لإسكارها، والفرق بين هذا النوع والنوع الأول، أن الصفة قد تكون علة كالإسكار، وقد لا تكون علة، بل متممة كالسوم، فإن الغنم هي العلة، والسوم هي متمم لها، قال الغزالي [2]: والخلاف فيه وفي مفهوم الصفة واحدة (إرشاد الفحول، ص: ١٨١)

النوع الثالث: مفهوم الشرط [3]، أي التعليق على شرط، والشرط في اصطلاح المتكلمين: ما يتوقف عليه المشروط، ولا يكون داخلا في المشروط ولا مؤثرا فيه، وفي اصطلاح النحاة، ما دخل عليه أحد الحرفين، إن أو إذا، أو ما يقوم مقامهما، مما يدل على سببية الأول ومسببية الثاني، وهذا هو الشرط اللغوي، وهو المراد هنا، لا الشرعي ولا العقلي، نحو قوله تعالى: "وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن" (الطلاق: ٦)، فإنه يفيد انتفاء الوجود عند انتفاء الحمل [4]، وهو مفهوم الشرط، وقد قال به القائلون بمفهوم الصفة، ووافقهم على القول به بعض من خالف في مفهوم الصفة [5]، ورجح المحققون من الحنفية المنع، واختاره الغزالي [6] وبسط الكلام في المنع والجواب عن القول به.

---

[1] انظر: فواتح الرحموت (١ / ٤١٤) ونفاه أبوبكر الباقلاني وابن سريج والقفال الشاشي والغزالي والآمدي وجماهير المعتزلة. انظر: إحكام الآمدي (٣ / ٧٢، ٨٣) والتمهيد (ص ٢٤٥) للإسنوي.

[2] المستصفى (٢ / ٢٠٤) وبه قال أبو بكر الباقلاني كما في إرشاد الفحول (ص ١٨١).

[3] وهو أقوى من الصفة كما قال ابن اللحام في المختصر (ص ١٣٣)

[4] انظر: الإحكام للآمدي (١ / ١٣٠) وشرح الكوكب المنير (١ / ٤٥٢) وإرشاد الفحول (ص ٧).

[5] منهم: إمام الحرمين الجويني، وابن سريج وأبو الحسن البصري من المعتزلة وأبو الحسن الكرخي من الحنفية وغيرهم. انظر: نهاية السؤل (١ / ٣٦٨) والمعتمد (١ / ١٥٢) والذخيرة (ص ٩٨).

[6] والآمدي والباقلاني والقاضي عبد الجبار المعتزلي وأبو عبد الله البصري. المستصفى (٢ / ٢٠٥)، والإحكام للآمدي (٣ / ٧٠) وأصول السرخسي (١ / ٥٥) وفواتح الرحموت (١ / ٤٢١).

قال الشوكاني: وقد بالغ إمام الحرمين في الرد على المانعين، ولا ريب أنه قول مردود[1]، وكل ما جاؤوا به، لا تقوم به الحجة، والأخذ به معلوم من لغة العرب والشرع. فإن من قال لغيره: إن أكرمتني أكرمتك، ومتى جئتني أعطيتك، فهم منه أنه لا يستحق الإكرام والإعطاء، إلا عند إكرامه المتكلم ومجيئه إليه، وذلك مما ينبغي أن لا يقع فيه خلاف، بين كل من يفهم لغة العرب، وإنكار ذلك مكابرة، وأحسن ما يقال لمن أنكره: عليك بتعلم لغة العرب، فإن إنكارك لهذا، يدل على أنك لا تعرفها انتهى. (إرشاد الفحول: ١٨١).

(يتبع)

❖❖❖

من أخبار الجامعة

إجازة عيد الأضحى

أعلنت إدارة الجامعة أن إجازة عيد الأضحى ستبدأ من يوم السبت: ٥ / ١٢ / ١٤٣٦ هـ = ١٩ / ٩ / ٢٠١٥م. وتستمر إلى يوم الخميس: ١٧ / ١٢ / ١٤٣٦ هـ = ١ / ١٠ / ٢٠١٥م. وتستأنف الدراسة بعد إجازة عيد الأضحى في يوم السبت: ١٩ / ١٢ / ١٤٣٦ هـ = ٣ / ١٠ / ٢٠١٥ م بمشيئة الله تعالى. وقد أكدت إدارة شؤون الطلاب على الطلبة بالالتزام بالحضور في الموعد المذكور وعدم التخلف عنه حتى لا يتعرضوا للمساءلة والتغريم.

---

[1] البرهان (١ / ٤٦٥).

أعلام وأعمال

الشيخ محمد يوسف كوكن وإسهاماته في تطوير الأدب العربي في الهند

د. محمود حافظ عبد الرب مرزا
جامعة اله آباد

يُعد الشيخ محمد يوسف كوكن من الأعلام الأفذاذ في القرن العشرين بالهند، وشخصية فريدة ذات جوانب متعددة، تحيط بمختلف العلوم والفنون. فقد استطاع بفضل الله ومنه أن يثبت جدارته في مختلف مجالات الحياة. وقضى جُل حياته في تأليف المؤلفات وإلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات العلمية والإشراف على عدد من المؤسسات العلمية. كما استطاع بفضل كثرة أسفاره الاطلاع على كثير من المشاهدات العلمية والخبرات الدنيوية، فاتسعت بها أفكاره ونظرياته. كما أنه ساهم في ترويج اللغة العربية وآدابها ودراساتها بجهوده المخلصة ومساعيه المشكورة، حتى افتخرت المكتبات الهندية والأجنبية بمؤلفاته، وبدون شك امتازت شخصيته بين معاصريه بإسهاماته الجليلة في ميدان الدراسات العربية وآدابها.

مولده ومنشأه:

اسمه: محمد يوسف، ولقبه كوكن. اسم والده: محمد إبراهيم كوكن، واسم والدته: فاطمة بيقوم. ولد في ٤ / نوفمبر ١٩١٤م في قرية مينمبور الواقعة على بعد ٥٥ كيلو متراً من مدينة مدراس (المعروفة بشيناي حاليا) بجنوب الهند. هاجر جده الأكبر زين العابدين كوكن الآركاتي في القرن الثالث عشر الهجري مدينة البصرة متجها إلى الهند، واستوطنت عائلته منطقتي بيجابور وكونكن، وفي عام ١٧١٣م، هاجرت قبيلة نوائط من تلك الأماكن واستوطنت منطقتي آركات وشنجي. وبسبب

هجوم المراهتة على هاتين المنطقتين انتقلت الأسرة إلى قرية مينمبور واستقرت فيها[١].

كان جده غلام حسين كوكن أميا لا يعرف القراءة والكتابة، ولكن يبدو أن والده قد تعلم قليلا.

دراسته:

لم يبلغ الشيخ كوكن الثالثة من عمره حتى رأى شقيقه يتجه إلى المدرسة، فبدأ يلح على مرافقته، وبذلك بدأ أهله بإرساله إلى المدرسة برفقة شقيقه، ونظرا لصغر سنه، لم يتم تسجيل اسمه في المدرسة، إلا أن عبقريته وفطانته وشغفه بالعلم دفع أساتذته إلى تسجيل اسمه [٢]. ومن هنا، ساهم شغفه بالدراسة إلى الالتحاق بجامعة دار السلام بمنطقة عمر آباد، وتعلم اللغة العربية والفارسية والعلوم الإسلامية والأدبية، وأتم دراسته هناك [٣].

وبعد تخرجه التحق بمجمع دار المصنفين، امتثالا لرغبة الحاج ساهوكار كاكا محمد إسماعيل، الذي كان له فضل كبير في تعليمه ورعايته، حيث أجرى الأخير اتصالات مع الشيخ سيد سليمان الندوي عن طريق الرسائل لأجل إلحاقه به، وبناء على ذلك اتجه الشيخ كوكن إلى مدينة أعظم غراه في ٢٢ سبتمبر عام ١٩٣٤م[٤].

التحاقه بأكاديمية شبلي:

عندما وصل الشيخ كوكن إلى مجمع دار المصنفين لم يكن يناهز الثامنة عشرة من عمره. وكان آنذاك الشيخ سيد رياست علي الندوي، والشيخ شاه معين الدين الندوي، والشيخ سعيد الأنصاري وغيرهم مشتغلين في إعداد عدد من الكتب مثل: "أسوة الصحابة" و "تاريخ الإسلام" و "تاريخ تركيا" و "تاريخ القبرص"، في حين كان الشيخ سيد سليمان الندوي يقوم باستكمال كتاب "سيرة النبي" الذي ألف الجزأين الأولين منه أستاذه الشيخ شبلي النعماني.

---

(١) يادگار يوسف كوكن، حافظه يوسف كوكن، حافظه هاؤس، مدراس، عام ١٩٩٣م ص ١٤—١٥.

(٢) يادگار يوسف كوكن، ص ١٨.

(٣) دار المصنفين كى سو سال، كليم صفات اصلاحي، ص ١٣٤.

(٤) مجلة "معارف"، نوفمبر ١٩٩٠م، ص ٣٨٦.

بدأ الشيخ الندوي يدرسه كتاب "بداية الحكمة" وترجمة القرآن الكريم، وأمره بمراجعة كافة ملفات مجلة المعارف حتى يلم بأسلوب كتابة المقالات القيمة ويتعرف على كيفية إجراء الأبحاث العلمية، ويزيد من معلوماته عن العلوم الإسلامية، وهنا توسعت آفاق ذهنه وفكره وأخذت تظهر علامات كفاءته وملكاته القوية، حيث استفاد من تربية أستاذه وإشرافه وتوجيهاته السديدة.

كان الشيخ الندوي يفتي في القضايا التي كانت تصل إليه آنذاك من حين لآخر، ولكنه أحال هذا الأمر إلى الشيخ كوكن بعد فترة وجيزة، فبدأ الشيخ يطالع كتب الفقه والأحاديث النبوية بشكل مستمر وتدرب على طريقة إصدار الفتاوى. [١]

وطلب الشيخ الندوي من الشيخ كوكن إجراء بحث علمي حول موضوع "الإمام ابن تيمية رحمه الله"، إلا أن الشيخ كوكن ظل مترددا في اختيار هذا الموضوع لأنه قد تطرق إليه قبله الشيخ شبلي النعماني، ومولانا أبو الكلام آزاد. ومع ذلك ظل منهمكا في الموضوع واستطاع أن يجمع المواد العلمية لتحقيق هذا البحث، ولكنه لم يتمكن من طبع هذا الكتاب ونشره إلا عام ١٩٥٩م. وفي أثناء ذلك قام بإعداد عدد من المقالات التي نشرت على صفحات مجلة "معارف" ومن أهمها: "حافظ ابن القيم" و "الإمام الذهبي" و "نهاية الأريب" للنويري و "مسلمانوں کے مستعمل سنہ"، وغيرها باللغة الأردوية. [٢]

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أنه لم تظل صلة الشيخ كوكن بالأكاديمية بصفته باحثا فيها لمدة طويلة، ولكنها زرعت فيه حب الاطلاع والمعرفة وغرست فيه حب إجراء الأبحاث العلمية وأشعلت فيه شعلة الإلمام باللغة العربية والعلوم الإسلامية تدريجيا، ومن الملاحظ أنه لم ينقطع عنها تماما بل عين فيما بعد عضوا في المجلس الإداري للأكاديمية. [٣]

---

[١] یادگار یوسف کوکن، ص٣٨.

[٢] مجلة "معارف"، نوفمبر ١٩٩٠، ص٣٨٦.

[٣] دار المصنفین کے سو سال، کلیم صفات، ص١٣٥.

ولا ريب أن للعلامة سيد سليمان الندوي ولمجمعه دار المصنفين، دورا هاما في تكوين شخصية الأستاذ كوكن، كاتبا مؤلفا ومصنفا محققا وعالما كبيرا، حيث كان التحاقه بدار المصنفين بمثابة نقطة تحول في حياته، حيث إن عمله بهذه الأكاديمية تحت إشراف العلامة الندوي، أثر في حياته تأثيرا عميقا، حيث جعله كاتبا شهيرا ومؤلفا معروفا ومصنفا كبيرا وأستاذا محققا بين الأوساط العلمية والأدبية في الهند وخارجها، وتألق اسمه في الأجواء العلمية والأدبية، وعُد من الكتاب الكبار في العصر الحديث بالقرن العشرين. [١]

كان لأحلامه التي كانت تراوده في إتقان اللغة الانجليزية سببا وراء انقطاع ارتباطه بالأكاديمية، حيث استطاع الحصول على شهادة الثانوية من كلية تابعة لجامعة إله آباد عام ١٩٤٠م، وفي يوليو عام ١٩٤١م، التحق بكلية محمدن مدراس الحكومية، في السنة الأولى من شهادة البكالوريوس، وبعد تخرجه منها، بدأ يتطلع إلى الحصول على الوظائف، فاشتغل في بداية الأمر مترجما مساعدا في مكتب الترجمة الحكومية بمدينة مدراس عام ١٩٤٣م. وبعدها التحق بعدد من الوظائف حتى عين عام ١٩٤٩م محاضرا في جامعة مدراس [٢]. وفي أثناء ذلك حصل على شهادة الماجستير من تلك الجامعة.

وهكذا ظل رحمه الله في حياته المهنية يواظب على التدريس وإلقاء المحاضرات بمختلف اللغات العربية والأردوية والإنجليزية في الأدب العربي والأردوي وغيرهما. وساهمت مشاركاته في الندوات العلمية في تحسين مستواه العلمي. وقام بتأليف عدد من الكتب في مختلف اللغات، علما بأنه وقف نفسه لأجل تربية الجيل الناشيء وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

واتجه الشيخ كوكن إلى مصر عام ١٩٥٧م والتحق بجامعة القاهرة، وكان من بين الأساتذة الذين كان يستمع إلى محاضراتهم آنذاك، الدكتور طه حسين،

---

[١] مجلة البعث الإسلامي، المجلد ٥٧، سبتمبر ٢٠١١م، ص٧٩.

[٢] يادگار يوسف كوكن، ص٥٩.

والدكتور حسين نصار، والدكتور يحيى خشاب، والدكتور سهير قلماوي، والدكتور شوقي ضيف. وبدأ يتعمق في معرفة الأدب العربي الحديث. وبعد شهرين بدأ في تحضير رسالة تحت إشراف الدكتور شوقي ضيف، حول موضوع "الفرزدق" ولسوء الحظ لم يستطع أن يكمل هذا البحث بسبب عدم قيام الحكومة الهندية بتمديد فترة ابتعاثه. [١]

مؤلفاته:

إن من خلال إلقاء نظرة خاطفة على مؤلفات الشيخ كوكن العديدة فإنه بإمكاننا أن ندرك مدى جديته في اختيارها وأدائه حقها، حيث استطاع أن يؤلف في حياته العديد من المؤلفات في مختلف اللغات، ومن أهم هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر:

(١)الإمام ابن تيمية، (٢) مختصر تاريخ هند، (٣) مولانا أبو الكلام آزاد، (٤) دكن ميں عربى ادب (٥) عورت اور مسئله امامت، (٦) العربية والفارسية في كرناتك، (٧)العرب وأدبهم (جزأين)، (٨) القراءة العربية (الجزء الأول)، (٩) القراءة المفيدة، (١٠) الأبيات المقدسة، (١١) أعلام النثر والشعر في العصر الحديث (٣ أجزاء)، (١٢)التجارة وما يتعلق بها، (١٣) دولة المغول في الهند، وغيرها.

وفاته:

لم يرزق الله الشيخ كوكن أي مولود، ولكن الله أعانه على تأليف عدد من الكتب التي ستظل تتلألأ في سماء العالم ما دامت السماوات والأرض بإذن الله، لتكون خير خليفة له بعد وفاته، وقد توفي رحمه الله في ١٦ أكتوبر عام ١٩٩٠م [٢]. فكان حقا من بين الموتى التي تحيى القلوب بذكرهم، ومصداقا لما قالته العرب: "موت التقي حياة لا نفاد لها".

---

[١] أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث، محمد يوسف كوكن، كلمة المؤلف.

[٢] يادگار كوكن، ص١٨٠.

وفيما يلي نلقي الضوء على بعض مؤلفاته العربية التي تعتبر مرجعا رئيسيا للأدب العربي في الهند، ومن أهمها:

العرب وأدبهم:

ألف رحمه الله كتاب "العرب وأدبهم" في جزأين، لأجل سد الفراغ المتواجد في الجامعات الهندية والكليات العربية والمدارس الإسلامية وخاصة في مدراس وكيرالا، حيث تبين له من خلال اطلاعه الواسع إدراك الحقيقة الكامنة في عدم معرفة الطلاب وخاصة في جنوب الهند عن تاريخ العرب وآدابهم لعدم وجود كتاب حول الموضوع في متناول اليد. فشمر عن ساعديه وبدأ بإعداد هذا الكتاب، حول تاريخ العرب من العصر الجاهلي وحتى العصر الأموي، الذي اشتملت على أحوالهم وغزواتهم وفتوحاتهم وآدابهم وما إلى ذلك.

دولة المغول في الهند:

واتضح للشيخ كوكن عدم إلمام طلاب العربية بتاريخهم العريق في الهند لعدم وجود كتاب بالعربية حول هذا الموضوع، وأنهم يقتصرون على معرفة تاريخ الإسلام في اللغة العربية من العصر الجاهلي وحتى سقوط بغداد على يد هلاكو، فسعى من خلال هذا الكتاب تزويد الطلاب بحضارات الهند وثقافتها وحكوماتها وبلدانها ومدنها، وسعى للتعريف بالأدباء والشعراء والكتاب والتحدث عن جهودهم المضنية ومساعيهم المشكورة وخدماتهم الجليلة وآثارهم الخالدة ومؤلفاتهم المفيدة ومساهماتهم القيمة في تنمية العلم والأدب، لذا قام بإعداد كتاب "دولة المغول في الهند" باللغة العربية ليلقي من خلاله الضوء على تاريخ المسلمين العريق في الهند.

أعلام النثر والشعر في العصر الحديث:

إن من خلال دراسة كتاب "أعلام النثر والشعر في العصر الحديث" الذي ألفه الشيخ كوكن في ثلاثة أجزاء ضخمة يتضح مدى شغفه بالقراءة وحب الاطلاع والمعرفة، حيث أنه جمع فيه تراجم لعدد من الشخصيات الأدبية العربية المشهورة، والذي كان أمرا صعبا للغاية آنذاك، ولا يزال حتى في يومنا هذا، لأنه يتطلب جهدا

كبيرا وعناء مضاعفا وعملا متواصلا ومتابعة دقيقة. وبدون شك فإن المكتبات العربية تذخر بعدد من كتب تراجم الأدباء إلا أن جمعها بين دفتي كتاب واحد يستحق كل التقدير والثناء. وبكل صراحة فإن الشيخ كوكن قام من خلال إعداده لهذه التراجم بجمع مواد علمية واسعة لكل من تستهويه الكتب العربية والأدبية، حيث قام بذكر المصادر القيمة لها حتى يتسنى للقارئ الرجوع إليها عند الضرورة لإشباع شغفه وإرواء ظمأه العلمي.

واشتمل هذا الكتاب على ثلاثة مجلدات ضخمة، يشمل الجزء الأول تراجم لعدد من الأدباء ابتداء من محمد علي والشيخ رفاعة الطهطاوي وحتى الأمير شكيب أرسلان، ليشمل بذلك ٣٣ أديبا وشاعرا بين صفحاته، ويشمل الجزء الثاني ٥٢ أديبا وشاعرا من أدباء وشعراء المهجر، والجزء الثالث والأخير يشتمل على تراجم لعدد من الأدباء ابتداء من الأستاذ أحمد لطفي وحتى الدكتور شوقي ضيف، ليشمل بين صفحاته ٤٦ أديبا. وهكذا فإن هذا الكتاب يعتبر من أجود الكتب وأدقها في الأدب العربي الحديث، ومرجع رئيسي لكل عشاقه.

كما أوضح الشيخ كوكن أنه من الصعب إحصاء جميع أدباء الأدب العربي الحديث في هذا الكتاب، نظرا لقلة المعلومات المتوفرة عنهم في الهند، ولصعوبة الإحاطة بجميع المعلومات الذاتية عنهم أيضا، إلا أنه فضل الامتثال للمقولة العربية "ما لا يدرك كله لا يترك جله".

ومن خلال دراسة مؤلفاته العربية يتضح لنا أن أسلوبه كان يمتاز ببساطة التعبير وسهولة المعنى وجزالة اللفظ واستقامته وغزارة المادة، لكي يسهل لكل من يريد قراءة كتبه في فهم واستيعاب محتوياتها بكل يسر وسهولة. وكان جل تركيزه على أن يستفيد منها كل من يرغب الاستفادة على أحسن وجه، كما كان يكثر من إدراج الحواشي لتذليل الصعاب والجمل المستعصية.

ومن خصائص مؤلفات الشيخ محمد يوسف كوكن، تنوع مصادرها وقدرته الفائقة على التحقيق والنقد، واتباعه للأسلوب الرصين، وكان يرى الشيخ أن أسلوب تأليفه يجب أن يتبع بعض القواعد والأسس اللازمة للبحث مثل مراجعة المصادر الرئيسية ونقدها جيدا، حيث لم يكن يقبل أي رأي أو وجهة نظر إلا بعد إجراء تحقيق عادل حول ذلك. فقد كان شيخنا تلميذ الشيخ سيد سليمان الندوي رحمه الله، لذا فإنه لم يكن يعتمد على العبارات المنقولة حتى ولو كانت من قبل كبار المحققين والباحثين ما لم يتم التأكد من صحتها من مصادرها الرئيسية.

خلاصة القول:

لقد ترك الشيخ محمد يوسف كوكن للأجيال ذخائر لا يستغنى عنها لأجل تطوير اللغة العربية وآدابها في بقاع الهند المعمورة والعالم أيضا، ولذلك تم تسطير اسمه بأحرف من ذهب في تاريخ الأدب العربي الحديث في الهند، ومن الصعب التغاضي عنه إبان الحديث عن مساهمة الهنود في تطوير الأدب العربي في الهند، سيكون في طليعة الأسماء التي تظهر في قائمة الأدباء الهنود بدون شك، ومما لا شك فيه فإن مؤلفاته الكثيرة لا تزال بمثابة مرجع رئيسي يستفيد منه جيل بعد جيل إلى يومنا هذا، يقول الشاعر:

يلوح الخط في القرطاس دهرا وكاتبـــه رميـــم في التـــراب

وعليه فإنه من الصعب التحدث عن الشخصيات التي مثلت دورا بارزا في تطوير اللغة العربية في الهند بدون التطرق إلى هذه الشخصية الفذة التي بذلت الغالي والنفيس في سبيل تدريس وتطوير اللغة العربية في الهند، وتشجيع الطلاب على تعلمها وإتقانها والتحدث بها بطلاقة.

ومن هذا المنطلق، فإنه يجب علينا أن نتذكر هؤلاء الأساتذة العباقرة من حين لآخر، وندعو الله العلي القدير أن يغفر لهم ويرضى عنهم ويدخلهم فسيح جناته، لأن الذكرى تنفع المؤمنين، وهي العامل الوحيد الذي يبعث في القلب شعلة العمل ويجدد في

النفس المثابرة وبذل الجهد لأجل السير وفق ما كانوا يسيرون عليه، فهم بالفعل أعطوا مثالا يحتذى به في القيم والأخلاق والإخلاص في العمل، ومهما قلنا وحاولنا أن نعرب عن تقديرنا وجهودنا لهم بشتى الكلمات والجمل فإن الألفاظ البليغة والعبارات القوية ستقف أمام أعمالهم ومساهماتهم عاجزة عن التعبير والوصف، ونكتفي بما قاله الشاعر:

تلك آثارنا تدل علينا　　فانظروا بعدنا إلى الآثار

وفي الختام، أرجو أن أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على شخصيته وأعمال هذا العالم الجليل والمفكر الكبير والأديب الأريب، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته.

والله على ما نقول وكيل.

المصادر والمراجع:

١. واقع اللغة العربية في الجامعات الهندية، د. إرشاد أحمد، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، آزاد بهوان، نيو دلهي.
٢. محمد يوسف كوكن العبقري الكبير في جنوب الهند، د. محمد بشير، مطبعة ك. إم، للطباعة والنشر، كاليكوت، عام ١٩٩٨م.
٣. أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث، محمد يوسف كوكن، دار حافظة للطباعة والنشر، مدراس ١٩٨٠م.
٤. يادگار يوسف كوكن، حافظه يوسف كوكن، حافظه ہاؤس، مدراس، عام ١٩٩٣م.
٥. دار المصنفين کے سو سال، کلیم صفات اصلاحی، دار المصنفين، اکادیمیة شبلی، ٢٠١٤م.
٦. مجلة البعث الإسلامی، مؤسسة الصحافة والنشر، لکناؤ، المجلد ٥٧، سبتمبر ٢٠١١م.
٧. مجلة "معارف" الأردوية، أكاديمية شبلی، أعظم غراه، نوفمبر ١٩٩٠م.

❖❖❖

مدح فضلاء الكتاب وذم حمقاهم

أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي

أما فضلاء الكتّاب فلم يزل الشعراء يلهجون بمدح أشراف الكتّاب وتقريظهم، ويتغالون في وصف بلاغاتهم وحسن خطوطهم. فمن أحسن ما مدح به كاتب قول ابن المعتز:

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه ... تفتح نورا أو تنظم جوهرا

وقول الآخر:

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام في الكتب

وقول الآخر:

وكاتب يرقم في طرسه ... روضا به ترتع ألحاظه

فالدر ما تنظم أقلامه ... والسحر ما تنثر ألفاظه

وقول الآخر:

إن هز أقلامه يوما ليُعملها ... أنساك كل كمي هز عامله

وإن أقر على رق أنامله ... أقر بالرق كتّاب الأنام له

وقول الآخر:

لا يخطر الفكر في كتابته ... كأن أقلامه لها خاطر

القول والفعل يجريان معا ... لا أول فيهما ولا آخر

وقول الآخر:

وشادن من بني الكتّاب مقتدر ... على البلاغة أحلى الناس إنشاء

فلا يجاريه في ميدانه أحد ... يريك سحبان في الإنشاء إن شاء

وكذلك أولعوا بذم حمقى الكتاب ولهجوا بهجوهم في كل زمن.

فمن ذلك قول بعض المتقدمين يهجو كاتبا:

حمار في الكتابة يدعيها ... كدعوى آل حرب في زياد

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو غرقت ثيابك في المداد

وقول الآخر:

وكاتب كتبه تذكرني الـــ ـــقرءان حتى أظل في عجب
فاللفظ "قالوا قلوبنا غلف" والخط "تبت يدا أبي لهب"

وقول الآخر:

يعي غير ما قلنا ويكتب غير ما يعيــه ويقــرأ غيــر ما هو كاتب

وقول الآخر:

وكاتــب أقــلامــــه معــودات بالغــلــط
يكشط ما يكتبه ثم يعيد ما كشط

وقول ابن أبي العيناء يهجو أسد بن جهور الكاتب:

أو ما ترى أسد بن جهور قد غدا متشبهــا بـأجلة الكتــاب؟
لكن يخــرق ألف طـومـــار إذا ما احتيج منه إلى جواب كتاب

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكتاب مما صاروا به هزؤا على ممر الزمان وتعاقب الأيام. كما حكى عن محمد بن يحيى الكاتب أنه قرأ على بعض الخلفاء كتابا يذكر فيه حاضر طيّ فصحفه حاضر طي فسخر منه أهل المجلس.

ويروى أن كتاب الدواوين ألزموا بعض العمال مالا مخرّجا عليه، فبعث بحسابه إلى عبيد الله بن سليمان فوقع عليه "هذا هذا" ورد الحساب إلى العامل فقدّر العامل بضعف آدابه أنه صحح حجته وقبل الحساب منه كما يقال في تثبت الشيء "هو هو" وأخرج التوقيع إلى الكتاب وناظرهم على أن ذلك يوجب إزالة المال الذي لزمه عنه فلم يفهم أحد منهم ما أراد عبيد الله بن سليمان فرد التوقيع إلى عبيد الله فلم يزده في الجواب على أن شدد الكلمة الأخيرة ووقع تحتها "الله المستعان" إعلاما له أن لفظ "هذا" بالتشديد بمعنى الهذيان.

وحكى العباس بن أسد: أن أبا الحسن علي بن عيسى كتب إلى أبي الطيب أحمد بن عيسى كتابا من مكة [1] فقرأه ثم رمى به إلي فقال: اقرأ، فقرأت: كتابي

[1] في ضوء الصبح (من منى).

إليك يوم القُر، بالرفع، فقال: ما معنى يوم القر؟ فقلت: القر البرد فقال: إنما هو يوم القر بالفتح، حين يقر الناس بمنى، وهو اليوم الثاني من النحر. ومثل ذلك كثير.

قال صاحب نهاية الأرب: "وقد اتسع الخرق في ذلك ودخل في الكتابة من لا يعرفها البتة، وزادوا عن الإحصاء، حتى إن فيهم من لا يفرق بين الضاد والطاء، قال: ولقد بلغني عن بعض من أدخل نفسه في الكتابة وتوسل إلى أن كتب في ديوان الرسائل: أنه رسم له بكتاب يكتبه في حق رجل اسمه طرنطاي فقال لكاتب إلى جانبه: طرنطاي يكتب بالساقط أو بالقائم. قال: وصار الآن حد الكاتب عند هؤلاء الجهال أنه يكتب على المجود مدة ويتقن بزعمه أسطرا فإذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة أصلح بزته، وركب برذونه أو بغلته، وسعى في الدخول إلى ديوان الإنشاء والانضمام إلى أهله، ولعل الكتابة إنما يحصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم. ولله در القائل:

تعس الزمان! فقد أتى بعجاب [1] ومحافنون الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب

قلت: وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها، حتى صار الفصيح لديهم أعجم [2]، والبليغ في مخاطبتهم أبكم، ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد:

وصناعتي عربية وكأنني ألقى بأكثر ما أقول الروما
فلمن أقول؟ وما أقول؟ وأين لي؟ فأسير، لا بل أين لي فأقيما؟

وقد حكى أبو جعفر النحاس عن بعضهم أنه قال: حضرت مجلس رجل فأحجمت عن مسألة حاجتي لكثرة جمعه، فرأيته وقد أملى على كاتبه "ولم أكتب بخطي إليك خوفا من أن تقف على رداوته" فكتب كاتبه "رداءته" على ما يجب فقال:

---

[1] في الأصل بعجائب وقد اخترنا رواية الضوء.

[2] في الأصل أعجما ... أبكما.

أما تحسن الهجاء؟ أين الواو؟ فأثبتها الكاتب فخس حينئذ في عيني، فاجترأت عليه فدنوت منه وسألته حاجتي.

وحكى صاحب ذخيرة الكتاب عن بعض الوزراء: أنه تقدم إلى كاتبه بأن يكتب ألقاب أمير ليثبتها على برج أنشأه فكتب "أمر بعمارة هذا البرج أبو فلان فلان" واستوفى ألقابه إلى آخرها، ودفع المثال إلى الوزير ليقف عليه فلما قرأه غضب حتى ظهر الغضب في وجهه، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب أبي فلان بالياء، محتجا عليه بأن أبو من ألفاظ العامة فلا تعظيم بها. فقال الكاتب: إن الحال اقتضت رفعه من حيث إنه في هذا الموضع فاعل، فزاد إنكاره عليه وقال: متى رأيت الأمير فاعلا في هذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة على رأسه حتى تنسبه إلى هذا؟ والله لولا سالف خدمتك لفعلت بك!

قال ابن حاجب النعمان: ولما كان أرباب الأمور وولاتها من الخلفاء فمن دونهم ينقدون ما يكتب به الكتاب عنهم وما يرد عليهم من الكتب، ويناقشون على ما يقع فيها من خطإ أو يدخلها من خلل، ويقدمون الفاضل ويرفعون درجته، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته، كان الكتّاب حينئذ يتبارون على اقتناء الفضيلة. ويترفعون عن أن يعلق بهم من الجهل أدنى رذيلة. ويجهدون في معرفة ما يحسن ألفاظهم، ويزين مكاتباتهم، لينالوا بذلك أرفع رتبة، ويفوزوا بأعظم منزلة.

ولما انعكست القضية في تقديم من غلط بهم الزمان، وغفل عنهم الحدثان، واستولت عليهم شرة الجهل. ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضل. وصار العالم لديهم حشفا، والأديب محارفا، والمعرفة منكرة، والفضيلة منقصة، والصمت لكنة، والفصاحة هجنة، اجتنبت الآداب اجتناب المحارم، وهجرت العلوم هجر كبائر المآثم.

ولو أنصف أحد هؤلاء الجهال، لكان بالحشف أولى، وبالحرفة والمنقصة أجدر وأحرى، لكنه جهل الواجبات وأضاعها [1]، وسفه حق المروءة وأفسد أوضاعها، ويوصف بالحي الناطق، والصامت أرجى منه عند أهل النظر وذوي الحقائق.

(صبح الأعشى: ١ / ٤٦ – ٥٠)



[1] في الأصل وأوضاعها بواو زائدة، وهي من زيادة الناسخ كما هو ظاهر.

فتاوى إسلامية

بيـــان
حـول تمثيـل شخص النبي محمـد صلى الله عليه وسلم
وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة الكرام رضي الله عنهم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن المجمع الفقهي الإسلامي برابطة العالم الإسلامي في دورته العشرين المنعقدة بمكة المكرمة، في الفترة من ١٩ – ٢٣ محرم ١٤٣٢ هـ التي يوافقها: ٢٥ – ٢٩ ديسمبر ٢٠١٠م لاحظ استمرار بعض شركات الإنتاج السينمائي في إعداد أفلام ومسلسلات فيها تمثيل أشخاص الأنبياء والصحابة فأصدر البيان التالي:

تأكيدا لقرار المجمع في دورته الثامنة المنعقدة عام ١٤٠٥ هـ الصادر في هذا الشأن، المتضمن تحريم تصوير النبي محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الرسل والأنبياء عليهم السلام والصحابة رضي الله عنهم، ووجوب منع ذلك.

ونظرا لاستمرار بعض شركات الإنتاج السينمائي في إخراج أفلام ومسلسلات تمثل أشخاص الأنبياء والصحابة، فإن المجمع يؤكد على قراره السابق في تحريم إنتاج هذه الأفلام والمسلسلات، وترويجها والدعاية لها واقتنائها ومشاهدتها والإسهام فيها وعرضها في القنوات، لأن ذلك قد يكون مدعاة إلى انتقاصهم والحط من قدرهم وكرامتهم، وذريعة إلى السخرية منهم، والاستهزاء بهم.

ولا مبرر لمن يدعي أن في تلك المسلسلات التمثيلية والأفلام السينمائية التعرف عليهم وعلى سيرتهم، لأن كتاب الله قد كفى وشفى في ذلك قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ} (يوسف:٣) وقال تعالى: {لَقَـدْ

كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَـيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (يوسف: ١١١).

ويذكر المجمع بقرار هيئة كبار العلماء، وفتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية، وفتوى مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة، وغيرها من الهيئات والمجامع الإسلامية في أقطار العالم التي أجمعت على تحريم تمثيل أشخاص الأنبياء والرسل عليهم السلام مما لا يدع مجالا للاجتهادات الفردية، كما يذكر بما صدر عن الرابطة في ١٦ / ١١ / ١٤٣١ هـ.

ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله تعالى فضل الأنبياء والرسل على غيرهم من العالمين، كما قال تعالى في محكم كتابه الكريم: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {٨٣} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {٨٤} وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ {٨٥} وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ {٨٦} **(الأنعام).**

ففي قوله (وكلا فضلنا على العالمين) تفضيل الأنبياء على سائر الخلق، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو خير الأنبياء وأفضلهم، كما قال عن نفسه: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع" رواه مسلم.

وهذا التفضيل الإلهي للأنبياء الكرام – وفي مقدمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم – يقتضي توقيرهم واحترامهم، فمن ألحق بهم أي نوع من أنواع الأذى فقد باء بالخيبة والخسران في الدنيا والآخرة، قال تعالى – في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم – : {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا} **(الأحزاب: ٥٧).**

فجعل أذى الرسول صلى الله عليه وسلم من أذى الله تعالى، وحكم على مؤذيه بالطرد والإبعاد عن رحمته، والعذاب المهين له.

وقد قرّر أهل العلم أن أذية الرسول صلى الله عليه وسلم تحصل بكل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال.

وتمثيل أنبياء الله يفتح أبواب التشكيك في أحوالهم والكذب عليهم، إذ لا يمكن أن يطابق حال الممثلين حال الأنبياء في أحوالهم وتصرفاتهم وما كانوا عليه – عليهم السلام – من سمت وهيئة وهدي، وقد يؤدي هؤلاء الممثلون أدوارا غير مناسبة – سابقا – أو لاحقا – ينطبع في ذهن المتلقي اتصاف ذلك النبي بصفات تلك الشخصيات التي مثلها ذلك الممثل.

فعلى الأمة أن تقوم بواجبها الشرعي في الذب عن الأنبياء والمحافظة على مكانتهم، والوقوف ضد من يتعرض لهم بشيء من الأذى.

والصحابة الكرام رضوان الله عليهم شرفهم الله بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم، واختصهم بها دون غيرهم من الناس، ولكرامتهم عند الله أثنى الله عليهم بقوله: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (الفتح:٢٩)

ولا يمكن للممثلين مطابقة ما كان عليه الصحابة – رضوان الله عليهم – من سمت وهدي.

والذين يقومون بإعداد السيناريو في تمثيل الصحابة – رضوان الله عليهم – ينقلون الغث والسمين، ويحرصون على نقل ما يساعدهم على متابعة المسلسل أو الفيلم وإثارة المشاهد، وربما زادوا عليها أشياء يتخيلونها وأحداثا يستنتجونها، والواقع بخلاف ذلك.

وقد يتضمن ذلك أن يمثل بعض الممثلين دور الكفار ممن حارب الصحابة أو عذب ضعفاءهم، ويتكلمون بكلمات كفرية كالحلف باللات والعزى، أو ذم النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به، مما لا يجوز التلفظ به ولا إقراره.

وما يقال من أن تمثيل الأنبياء عليهم السلام والصحابة الكرام فيه مصلحة للدعوة إلى الإسلام، وإظهار لمكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب غير صحيح.

ولو فرض أن فيه مصلحة فإنها لا تعتبر أيضا، لأنه يعارضها مفسدة أعظم منها، وهي ما سبق ذكره مما قد يكون ذريعة لانتقاص الأنبياء والصحابة والحط من قدرهم.

ومن القواعد المقررة في الشريعة الإسلامية أن المصلحة المتوهمة لا تعتبر، ومن قواعدها أيضا: أن المصلحة إذا عارضتها مفسدة مساوية لها لا تعتبر، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فكيف إذا كانت المفسدة أعظم من المصلحة وأرجح، كما هو الشأن في تمثيل الأنبياء والصحابة.

ثم إن الدعوة إلى الإسلام وإظهار مكارم الأخلاق تكون بالوسائل المشروعة التي أثبتت نجاحها على مدار تاريخ الأمة الإسلامية.

ووسائل الإعلام مدعوة إلى الإسهام في نشر سير الأنبياء والرسل عليهم السلام والصحابة الكرام رضي الله عنهم دون تمثيل شخصياتهم، وهي مدعوة إلى امتثال التوجيهات الإلهية والنبوية في القيام بالمسؤوليات المتضمنة توعية الجماهير، لكي تتمسك بدينها وتحترم سلفها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.



التوقيعات على البيان الصادر:
في حكم التمثيل لحياة النبي ﷺ وجميع الأنبياء عليهم السلام
والصحابة الكرام

محمد رشيد راغب قباني — د. نصر فريد محمد واصل — د. عبد الكريم زيدان

د. أحمد بن عبد الله بن حميد — د. وهبه مصطفى الزحيلي — د. حسين حامد حسان

د. مصطفى سيريتش — محمد بن حسن آل الشيخ — عبد الله بن سليمان المنيع

د. عبد الله بن علي الركبان — د. عثمان بن إبراهيم المرشد — د. علي أحمد السالوس

مع التحفظ على تحريم تمثيل الصحابة رضي الله عنهم

الأمين العام للمجمع الفقهي — نائب الرئيس — رئيس مجلس المجمع الفقهي

د. صالح بن زابن المرزوقي — د. عبد الله بن عبد المحسن التركي — عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ

(قرارات المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في دوراته العشرين ١٣٩٨ – ١٤٣٢ هـ / ١٩٧٧ – ٢٠١٠م)

❖❖❖